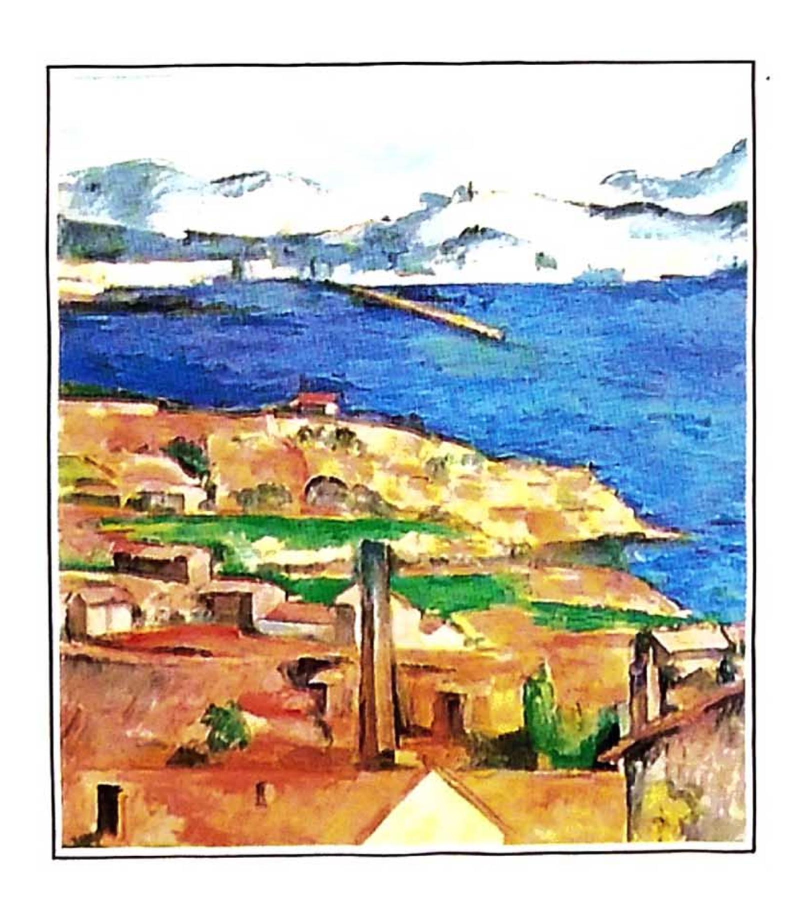
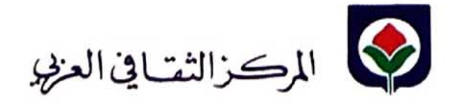
أمير تاج السر

مرايا ساحلية

سيرة مبكرة





مرايا ساحلية

سيرة مبكرة

* مرايا ساحلية (سيرة مبكرة)

* تأليف: أمير تاج السر

* الطبعة الأولى، 2000

* توزيع: المركز الثقافي العربي.

العنوان:

□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

أمير تاج السر

مرايا ساحلية

سيرة مبكرة



المركز الثقافي العربي

- 1 -

لا زالت شهيتي، فيما أنبش في أطباق الطعام المتنوعة.. بيتزا وهمبيرجر.. واسبغيتي.. تحنّ إلى ذلك الطعم النادر لفول (الدبل) وطعمية (ديجانقو) وسندوتشات الكبدة والكلاوي المتربة في نادي (الرماية).

لا زالت الدروب التي قطعتها (الموريسماينور) الخضراء ذات المقود اليمين، والجسد المختصر المفلطح، بدءا من زرقة البحر حتى عروق الصحراء، تزحف في الذهن ضاجة كما هي، وعرة كما هي، مسفلتة بإسفلت البلاد الفقيرة.. إسفلت الهبات.. و (جابو) شرطي المرور الحنظلي يراقبها بصفارة صدئة، وإشارات عرجاء، وملامح منسوفة اكتسبها من هجير الشمس، وسخط السائقين.

لا زالت العين ترمش فترى الشبق الساحلي ممدداً أخّاذاً يرسمه (المرضي) بريشة عاشق من مكان بين الوعي والتثاؤب، فترى البحر يزفر، الظلال تغني، وسفن الرحيل الغريزي منسجمة تستريح على لون وطعم، كانت الحكمة في البحر، الصيد في ما يهبه البحر،

رائحة اليود من عرق البحر، ونزهاتنا(العصراوية) في شريط يلتصق بجسد البحر. كانت المدينة قد رسمت حكاياتها بحكاياتها.. بنت أحياءها، واحتضنت ملامح سكانها.. الآن ألمس أهل المدينة، أشمهم، يمسكون بعطر الكتابة، يودون لو خرجوا في العطر.

هذا (عزيزو) المجذوب، مندلقاً في المسافة بين الوعي والغياب، أمامه كتب وأقلام، ودفاتر، وتواريخ، واسطوانات ومن فمه المحلى بالجوع، تسقط ثقافة مجذوبة، التقطها من حيث لا يعلم أحد.

من أنت يا عزيزو.. ؟

من أنت يا طويل وأشعث، ومدغدغ القدمين؟.. ومفترشاً فظاعة الدرب.. لا ترد السلام؟. لست من الشرق أبداً، ولا من الشمال أبداً.. كأنك من الجنوب لكن فيك فصاحة لم تصل (الرجاف)، ولا (مريدي) ولا (جوبا).. كأنك من الغرب لكن عطر الغرب لا يغلف جلدك..

يلهث في صباحك أولاد المدارس، داكنين، ومتسخين، ومهرجين، وذاهبين إلى الدرس مجبرين لا أبطالاً.. تحصد من طيشهم بذاءة وهرجلة، ويحصدون من موتك المسمر في الطريق شعراً ونثراً، وأغنيات مرحومة لـ (كرومة) و (سرور).

تلهث في ظهيرتك النساء الذاهبات إلى حيث تذهب بهن الخطى، تحصد من تنوعهن، وعطورهن، وتبرج أجسادهن ضحكة، وشفقة، وربما اشتهاء، ويحصدن من موتك المسمر تجاوباً مجنوناً.

يلهث في ليلك الكفرة، واللصوص وقطاع الطرق، وشرطة الخيالة على بأزياء يابسة، وأحصنة متليفة، تحصد من خشونتهم سرقة، ولدغة، وعراكاً وسيجارة من تبغ رخيص، ويحصدون من موتك المسمر.. موتاً مكفناً.. هادئاً.. مدفوناً. لو كنت في هذا الزمان، لقلنا مجنداً أمنيًاً محشواً بالخطط والمطاردات يلاحق ساسة مساكين، لم يكن في زمانك سوط ولا ساطور، ولا سراديب تحت الأرض.. كانت الدولة شعباً حاكماً وشعباً محكوماً، قلباً نابضاً، وقلباً يستريح إلى حين.

يقول معاصروك ممن شهدوا مسارك بين الوعي والغياب، إنك عاشق جامعي قتلته امرأة، ففر من منبع القتل بنصف عقل وربع دنيا..

هل كانت قاتلتك رائعة يا عزيزو؟

هل كانت دافئة؟..

لابد أن لها وجهاً مدوراً، و(زماماً) في الأنف، وشفة موشومة، وشعراً ليلياً، وشلوخاً خضراء تمتد من حلمة الأذن حتى منابت الأضراس.. أليست هذه صورة حية براقة لحسناوات ذلك الزمان؟

ما اسمها يا عزيزو؟.. لابد أنه السرة أو العافية، أو الزينة، أو ست البنات.. أليست هذه أسماء جارحات القلوب ومدرّات العطش، والباركات على ليالي التعب لذلك الزمان؟.. ما اسم عطرها يا عزيزو.. إنه (أوراق الخريف).. إنه (سرتية الهند).. إنه (بنت السودان)، إنه عطر (السيد علي). وثيابها الزاهية في عينيك.. لابد أنها (رسالة لندن) أو موضات (أبو قجيجة)..

أو(الحمام طار)، أو حتى ثياب(الزراق)الموغلة في فقر اللون وفقر القماش.

كنا من تلاميذ المدارس يا عزيزو، ابتدائيين لم نؤذك، ولم تؤذنا، فقط رميناك مرة بحجر، ورميتنا ببيت شعر عن عود صندل أشعل فزاده الإشعال طيباً، فأصبحنا ندماء لثقافة الجنون المنبثقة من تحت الوعي والغياب. نعاقرها كلما سمح وقت الشيطنة. أذكر يوم كانت السلطة تلم غوغاء الطريق، ترسلهم إلى حصاد القطن، وإيذاء دودة القطن، وتعيدهم إلى منابتهم آدميين ومغسولين بلا غوغائية. ظنوك غوغائياً فلمُّوك، التممت عدة أشهر قطنية، ودودة قطنية، وعدت إلى ركنك القديم عارياً كما كنت.. ومت يا عزيزو.. مت بعد أن كاد ركنك القابض على المدرسة الأميرية، يقاسمها الإسمنت والحرارة، ولهاث الدروس، وشرود أذهان التلاميذ، يستحيل مدرسة. وجدوك ميتاً صعلوكاً، فواروك موارات ميت صعلوك بجنازة خرجت من مشرحة، وتجهم طبي، وانغرست في حفرة بلا اسم تحت أشجار المسكيت المالحة، ووجدوا دفاترك، وأقلامك، واسطواناتك، وكراريس حزنك أيتاماً.. فأحرقوها بنفس تلك القسوة، وذلك الحذر الذي تحرق به ضفائر الطاعون.. وظللنا نحن المشاركين في فظاعة الدرب، نبكي رهافة، نقتفي آثار موتك أياماً، نتسلق العناد الضال لركنك الخالي ونهرشه إلى أن نسيناك... نسيناك لأن (حمدة) المتسولة جاءت، انغرست في ركنك القديم بشبق، ذوقته بجسد أنثوي، وعرق أنثوي، وتشرد أنثوي أيضاً.. وسترت عورة النوم التي كنت تتركها عورة بملاءة بيضاء انسخط بياضها وتحول إلى شئ بين البياض

واللابياض. وأطلقت في فظاعة الدرب نداءها الذي ظل يرافق نمونا في المدينة الساحلية، يضعف قليلاً، يزحف على لحنه نشاز أشيب، وتزحف على جمله حروف متآكلة، كلما كبرنا، لكنه يظل نفس النداء

(الله فرجه قريب يا حمدة

الله رزقه كثير يا حمدة.).

لو أنك التقيت بحمدة يا عزيزو، كنت التحفت بذات حيرتنا التي التحفنا بها.. والتحفت بها المدينة من زرقة البحر إلى عروق الصحراء. كانت امرأة قاسية الجمال، بيضاء وفي وجهها برق، وعينان سوداوان.. وملامح أخرى مرتبة لا تنسب إلى أي هرج قبلي.. حتى لقَّبها الطريق بالملاك المتسول. كانت حجازية، أو نجدية، أو هجيناً من هذا وذاك، حتى اسمها الذي هوت به إلى عالمنا، وعالم المدينة، كان غريباً لم نسمع به من قبل لا في أم ولا أخت ولا جدة. لقد تلكأ الساحل كثيراً في محاولة تأصيلها، قربها قليلاً من (الجعليين)، و كثيراً من (مغاربة بربر)، وبيض (أمدرمان) ذوي الأصول المبهمة، لكنه كان مجرد تلكؤ لا أقل ولا أكثر. فقد ظل كنزها الجذوري مخبأً أمام ضغط التأصيل، وخرائط البحث والفضول، وطوال جلستها الوظيفية في ركنك القديم لم تقل شيئاً سوى النداء الشحاذ، ولم تمد إلى خارج الثوب الملفوف بأسى، سوى يد الشحذة اليمنى العارية من الحناء والخواتم ومستلزمات مثل هذا الجمال الفذ، كان تلاميذ المدارس المراهقين يرجمونها بغزل منكود، ونساء الطريق يغرن منها غيرة بلا معنى، والكفرة واللصوص، وشرطة الخيالة يودون لو نهبوا شقاءها الليلي،

وسمعنا ونحن صغار على السمع، لكن آذاننا تسمع، أن كثيراً من وجهاء المدينة وشياطينها وآفات ليلها في ذلك الزمان، حاموا حول جمالها المتسول، عرضوا تنظيفها، وكسائها وطلاء عالمها، وإلحاقها مالئة للغرائز في ليالي الجوع، وأن متيَّماً عجوزاً هش القلب، جاءها بشاهدين، ومأذون، وكسوة، وبكاء مضطرب، قال.. على سنة الله ورسوله يا حمدة.. فقهقهت لأول مرة، وشاهدت المدينة أسنانها الفوارة البياض، ولسانها الأحمر حتى الدم، ويدين اثنتين ترجمان عجوز الوله بالرمل والحجارة. وفي إحدى السنوات ظهرت جميلة وأخوها جميل، كانا معاقين من بيت (هدندوي) يشبهان الكتابة الصينية في كل تثنياتها والتواءاتها ونماذجها المنقوشة على كثير من السلع و البضائع، حتى اشتهرا بذلك اللقب بين شاغلي الطريق، دخلا صنعة التسول من باب العيوب الخلقية، وركاكة الجينات وكانا بارعين في ذلك، اقتربا كثيراً من ركن حمدة، ركنك القديم، واحتلا جزءا من شفقة الطريق، لكن جزء الشفقة الكبير كان لحمدة لا يزال.

حمدة الآن في الركن امرأة ممحية الجمال، سمراء وفي وجهها رمل وعينان يابستان، وملامح أخرى مبعثرة تنسب إلى مائة هرج قبلي. تجاوزتها الشفقات بجدارة لتشفق على جيل جديد قاسمها الركن والصنعة وجدد في نداء الشحذة حتى صار موسيقى راقصة، وبدا ذلك الفرج القريب الذي نادت به، وخرّف في مفردات ندائها بعيداً جداً.. أراها تعذب خبزها اليابس تسجنه في كيسها الممزق لأيام، وتعذب صوتها المسن تحمله فوق طاقة العمر. وحين تؤخذ أحياناً في حملة عصبية لنظافة المدينة، وتلقى في مستودع مهجور

خارج نطاق الطرق، يتلفت الاعتياد باحثاً عنها، وحين تأتي يطمئن الاعتياد.. يتجاوز ندائها إلى النداءات الجديدة. أيضاً جميلة وأخوها جميل.. شاخا في الوجهين وظلت كتابة الجسد الصينية على حالها.. وعندما أصبحت للسفر طرق برية، وتبع ذلك إنشاء محطة لباصات ذلك السفر، أسسا تسولا جديداً في تلك المحطة.

أتركك الآن يا عزيزو.. في الذاكرة مائة ألف وجه. ومائة ألف قناع.. ليست كلها في خصوبة وجهك.. لكنها ندبات في المسيرة باقية حتى النهاية.

هذا (بشارة البيجاوي)، متسول آخر لم يمد يد التسول إلى أحد أبداً، فقد ولد بلا يدين، ويبدو أن تلك الولادة المتأزمة قد هيأته لينعم بحياة رغدة لا ينعم بها الكثيرون، فقد كان نجماً من نجوم كرة الطاولة ملأ بضوئه الساحل وشغل الناس. لا يعرف أحد كيف أتيح لبشارة وهو قيلي معوق، يرطن في بيئة الرطانة التي لا تعرف رياضة أو نجومية، يأكل بأطراف رجليه، ويمشي مشوشاً من خلل التوازن، أن يتقن تلك الرياضة، لكن هذا ما حدث.. كنا نشاهده غارقاً في زي أبناء البجة، ورطانتهم، يتمدد في الأندية والملاعب، ومهارة الماهرين، ويأكل الجو بلا مشقة، وفي نهاية كل معركة، تعبأ جيوبه بالمال. وأذكر أن صحفاً عاصمية جاءته بمحررين، ومصورين، وخبراء لتقييم أدائه، فأدلى بأحاديث راطنة لم يفهمها أحد، لكنه رد كيد الخبراء إلى العاصمة مستغرباً.

الآن رتب العم (حمزة) غرفته الصغيرة ترتيبه المتأني، وضع ملاءة على لحاف، وكيساً على وسادة، وضوءاً شاحباً على فانوس صغير. مشط شعره الناشف بمشط من حديد، دهن وجهه

الإسفلتي بزيت سمسم نفّاذ.. قرّب عينيه المنطفئتين إلا قليلاً من وجوهنا الطفلة وبدأ يحكي بصبر..

(قال له جبريل: اقرأ.

قال : لست بقارئ.

قال : اقرأ وربك الأكرم.. الذي علم بالقلم.).

تلك كانت نداءات الليل الأثيرة، لم يكن في الفضاء بث غامض، ينتزعنا نحن أبناء وسط المدينة من أسرتنا وغطاءاتنا، وكتبنا وكراريسنا، وتشنجات أمهاتنا.. كان العم (حمزة) فضاءاً وحيداً، وبثاً ناضجاً.. يقص على عقولنا الطفلة أحسن القصص، يسير بنا إلى محن موسى ويوسف وذي النون، ونار (الخليل)، يسردها في ترف، وننام ونحن أنقياء. بكينا على الطفل الملقى في النهر بكاء أمه، والتعنا على الصبي المغروس في البئر لوعة أبيه.. قلنا.. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وصفقنا بنشوة حين استحالت نار الخليل إلى سلام وبرد. فيك شيء غريب يا حمزة.. يا عم.. لابد أنك كنت جارا للستين في ذلك الوقت، أو تقيم معها في مكان واحد.. كان لسانك يبدو شاحباً بلا دم.. كانت أسنانك لا تشبه أسناننا، تنتزعها كلها، تضعها في إناء من الماء ثم تعيدها إلى ذات الفم دون أن تنقص سناً.. وكانت عمامتك برغم اجتهادك في إبقائها واقفة، إلا أنها كانت تترنح.. لم نر لك زوجة، ولا ولداً، ولا حفيداً ولا أهلاً ولا أقارب.. ولا ذكريات مشتاقة تتسرب إلى البث صدفة.. ورأيناك بائعا متجولاً عصبياً في سوق الطبالي، وخادماً محني الإرادة في بيت حكومي عندما يغلق البيع فمه، ملامحك ترسلك إلى غرب البلاد بجدارة،

ولهجتك ترسلك إلى شماله بجدارة أيضاً، وزيك المكون من الصديري والسروال والعمامة يبقيك لاصقاً بالشرق حيث عرفناك.. سنوات ونحن مشاهدي بثك المسائيين، ولا نعرف.. وحين أردت أن تموت، أو تنمحي، أغلقت بيعك المتجول العصبي، وخدمتك المنزلية محنية الإرادة، وفضاءك الليلي الذي رشحك عمّاً لعيال وسط المدينة أجمعين، حملت حقيبة من صفيح صدئ، ووجها من ملامح ذائبة، ورجلين من عظم هش، وانتفيت..

إلي أين ذهبت يا حمزة.. يا عم؟

هل ذهبت إلى الغرب حيث قالت ملامحك، أم إلى الشمال حيث قالت لهجتك، أم بقيت لاصقاً بغراء من خيال في الشرق حيث يقول صديريك، وسروالك، وتقول عمامتك المبقعة.. لو مت حقاً لكان موتك في ذلك الزمان رناناً وذا صدى، كنا رأينا سرادق وعزاء، ودمعاً مرّاً ليس في بيت مخدوميك الحكوميين فقط، لكن في عيوننا نحن رواد بثك المسائي.. نمضي إلى أولئك المخدومين.. نسألهم بإلحاح الطفولة الذي لا يلح إلا في ساعة القيلولة المسترخية.. أين عمنا يا مخدومين؟

يقولون.. عاد إلى وطنه.

أين وطنه يا مخدومين.. ؟

يقولون لا ندري.. يسدون باب الإلحاح بجلافة، ويسرعون إلى أسرتهم، يلمون ما تبقى من نعاس القيلولة.

نعاود الإلحاح.. ويعاودون سد الإلحاح.. وكانت توجد في بيت أولئك المخدومين، امرأة نصف أنثى.. لها شارب رفيع

كشوارب المراهقين، لم تكن خادمة، ولا مربية، ولا زوجة، ولا جدة. . كان وجودها من نوع ذلك الوجود الغامض الذي ينتشر كثيراً في بيوت الوطن ولا تستطيع حتى تلك البيوت تفسيره. . كانت طويلة وسمراء، وتشبه حصان سباق معتزل. كنا نسميها (المبروكة). . دون أن ندري إن كان ذلك اسمها حقاً. . أم اسماً اخترعناه بإيحاء من بركة كنا نراها فيها. . لم تكن تظهر في الحي أبداً. . وحتى أمهاتنا اللائي كن يجسن بزياراتهن في الحي، يقتلن ملل النهار، ويدخلن ذلك البيت من حين لآخر، كن يرينها ضباباً يتلوى بين الغرف دون أن يستقر في جلسة. وحين يبدأ بث حمزة المسائي، كانت تلتف حوله، تحاصره بحواس الحصار كأنها رقيب مكلف. وفي بعض الأحيان كانت تدعم ذلك البث بشاي أحمر تصبه من إبريق قديم. كانت تبدو متأثرة بشدة، تتبعنا إلى الطريق خطوات. . تقول حمزة سيعود. . ثم تسرع إلى داخل المنزل.

نمضي إلى (جمعة جامع) مهاجر الغرب القديم، وخياط الفقر والفقراء في دكانه المهمش في طرف السوق الكبير، نعرفه صديقاً مقرّباً للعم حمزة، كنا نراهما ستينيين يحتسيان شاي (القرفة)، وقهوة (الزنجبيل)، ويلهثان في ضحك أكبر من طاقة العمر، وفي ظهر الجمعة حيث لا خياطة في السوق، ولا بيع في الطبالي، ولا خدمة منزلية، كانا يذهبان لصيد السمك، فيصيدان إرهاقاً، وتعباً، وآلاماً في المفاصل ويرجعان.

نسأله. .

أين عمنا يا صاحب عمنا؟

يقول. . حمزة انقرض. .

نسأله عن الانقراض الذي تعرفه أذهاننا صفة متوحشة تخص ديناصورات كانت تعيش في عهد قديم. . ولا تخص أحداً آخر. . يلحسنا ببصر ميت، ثم ينكفئ على مهنة الشقاء المر، يكمل ثوباً فقيراً لفقير ينتظر. وبعد عام أو عامين، لا أذكر بالتحديد، انقرض (جمعة) نفسه، كانت ليلة الوقفة لأحد الأعياد، انزنق فيها متبعا القول القديم. . (زنقة الترزي يوم الوقفة)، وعندما سلم آخر فقير ثوب عيده، ذهب لينقرض في أحد الأحياء البعيدة.

متى ظهرت قناة (طاهر) كبث تعويضي في حياتنا المسائية؟

لا بد أن ذلك حدث في تلك الأمسية التي شهدنا فيها عرضاً مبهراً لتقليد أصوات الناس، والقطط، والكلاب، والأفاعي، وحياكة النكات التي تضحك الصخر. إنه (طاهر كلام). . موهوب أربعيني، نط إلى سطح المساءات فجأة فتكحلت تلك المساءات من نطه، لم يكن غريباً عن الساحل، فقد ولد فيه، وأظنه تدرب لأكثر من ثلاثين عاماً قبل أن يبدأ بثه في المدينة. . لأن تلك الحبكة، والتشرد، والثراء الإضحاكي لم تكن أجنة أبداً. وفي أقل من عام كان يوقع على سهرات الأندية، والجمعيات الأدبية، ورياض الأطفال، والرحلات، وحفلات العرس التي ينأى منظموها عن العربدة، وعشاء المغنيين. التحقنا بجلسته المتقطعة التي كانت تلمها مصطبة حكومية في وسط المدينة، سنوات من الاستغراب تدهسنا، ونحن نسمع في كل يوم تنوعا جديدا يشاكس تنوع اليوم السابق، ويطرده من الذهن. وحين نسأله. . من أين تأتي بكل ذلك؟، كان يقلدنا في التساؤل، فتسمعنا وقد سألنا مرات ومرات، والناس يضحكون. حتى آباءنا الذين عودتنا البيوت على وجوههم

في أوج جمودها كانوا يأتون من حين لآخر، ينغرسون في القناة الضاحكة حتى لنظنهم آباء آخرين لعيال آخرين. كان يوجد في الحي قاضٍ شرعي، من أولئك الذين تخصصت محاكمهم في شبق الزواج والطلاق، والنفقة، كانت مصطبة البث قريبة من بيته، وكان ضحك المصطبة لامعاً يبدو أن لمعانه امتد حتى حط في فراش القاضي، فانتفش غيظاً، وكان ذلك اليوم الذي طردت فيه القناة من وسط المدينة بلا رجعة.

طاهر الآن سبعيني ورع، نتفت السنوات موهبته الضاحكة، وبدا تحت سقف التحول جدًّا عادياً تعذبه ركبتاه، ويراوغ الخيط إبرته، ينام ومسبحته تحت رأسه، ويصحو ليبحث عن إبريق وماء.

- 2 -

كان البيت من حجر خشن، اثنا عشر بيتاً بذات الخشونة ولدها المعمار الإنجليزي ولادة ناقصة، وتركها ملاذاً لموظفي الدولة الصغار حتى يكبروا، فيدحرجوا إلى ملاذات أكثر نعومة. كنا نستغرب من طوبها المضلع، وسقفها (الأسبستس)، وحوائطها القصيرة، التي تبرز عورة الطريق بسهولة، وبقائها عارية بلا صبغة، خاصة حين نقارنها ببيوت حكومية أخرى لموظفين أعلى درجات تتغطرس بالقرب من وسط المدينة، وساحل البحر. كانت تتكئ على مساحة سرقت من وسط المدينة بمكر، فأقلقها ذلك الوسط.. حاصرها بروتينه، ومرافقه، وبؤر ترفيهه القليلة.. المستشفى الملكي، سينما الخواجة، إدارة التعليم، المحاكم الشرعية، أندية الموظفين، وحديقة (عبود) التي أطيح باسمها في انقلاب (أسمائي) مباغت، لتخرج إلى الأوراق الرسمية وهي حديقة (الشهيد).. لكننا ظللنا نناديها باسمها القديم، متجاهلين مناداة شهيدها الذي لم نسمع به، وحتى ذلك اليوم الذي دهست فيه بأقدام الإسمنت والحديد والخرسانة ونبتت في قبرها مساكن رأسمالية وقحة. كذلك

سينما الخواجة، فقد (سودنت) عشرات المرات بأسماء، كالثورة، والنصر، والمدينة، وأمير، تناوبت تلك الأسماء اللمعان على لافتتها المضاءة، لكنها لم تعش، ماتت أمام سطوة (خواجاها) الذي زرعها ترفيهاً رخيصاً. . شبقاً في ذلك المكان. كانوا يسمون، والطريق يسمي، فتمشي إرادة الطريق. حتى مقالب الزبالة المبعثرة في الأحياء، كانوا يسمونها أوعية المهملات، ويسميها الطريق (الكوش)، فتأكل وتستفرغ، وهي(كوش الطريق)، لا (أوعية مهملات) الحكومة. كذلك الشوارع الكبرى في المدينة كانوا يدمغونها بأسماء ضحايا الحرب، ومتناوبي السلطة، والتجار، فيسلكها السالكون دون أن يترحموا على ضحية حرب، أو سلطوي مخلوع أو تاجر أسود التجارة.

كنا نطل على تلك السينما إطلالة قارصة وعاضة، لدرجة أن إغراء (هند رستم)، كان كأنه إغراء لغرائز بيتنا، وغناء (شامي كابور) كأنه لتطريب آذان بيتنا، وتدحرج (زباتا) عن فرسه الذي كان ممارسة (فلمية) شائعة، ، كأنه يمارس في بيتنا، والرصاص الذي يجود به(استيفن) على خونته من رعاة البقر في حانات الغرب البعيد، كأننا نجود به من غرفنا الضيقة والمكبوتة. . كنا مع الرواد في عرض المناظر، وبداية الفيلم، واستراحته، وأعطال الكهرباء التي تسخط المزاج، فيصفر ويشتم وربما كسر مقعداً سينمائياً على البلاط المشقق. وكان بعض أقاربنا الزائرين في أمسيات صلة الرحم، والوئام العائلي، يمارسون شقاوة غريبة، شقاوة تخرجهم من أطر الضيافة الكريمة، إلى أطر الاستياء العام، كانوا يصعدون على سطح البيت بسلم من الخشب نجرته شقاوتهم، يلقون بحواس

التفرج جامحة على الشاشة المائلة بتبرج، وإغراء، ينشغلون ساعات، ويهبطون كأنهم هبطوا من مقصورة حقيقية، بعد أن أغرقوها بالفول المدمس، والتسالي، والبيبسى كولا، وفي أحد الأيام تسلق إلى سطح الترفيه ذلك موظف مدني وقور، يرأس إدارة حكومية كاملة، ويعول أسرة متوسطة، ولم يقف على باب جارته السينما من قبل إلا حين تأكد بضراوة أنها تعرض فيلما عن ظهور الإسلام. كان هو والدي، لم يمكث سوى دقائق، أظنها أفحمته، وعاد وبرفقته أعقاب للسجائر، وزجاجات فارغة، وتقطيبة في الوجه، وصوت رجالي قاسٍ وكان من نتيجة ذلك أن دمر سلم التسلق، ودمرت شقاوة المساء بلا رجعة.

الإطلالة الأخرى كانت على حوادث المستشفى، هي أيضاً إطلالة قارصة وعاضة.. إطلالة على باب الطوارئ.. ذلك الباب الهستيري الذي يدخل منه الناس يولولون، تتلقفهم الأيدي، والمعاطف البيضاء، والحقن المهدئة، ومحاليل الدم، وربما محفات قاسية تحملهم عميقاً.. من ذلك الباب كان يدخل الربو، والشلل، والنزيف، والقلب المطعون، وكل ما صنف طارئ في لغة الطب المتفلسفة.

كانت تفصلنا عن تلك الهستيريا، صفوف من عربات الخشب المثقلة بالحاجيات، مكونة سوق الطبالي الشعبي العنيد.. إنه سوق (الغبش)، سوق الصعلكة و(الشارلستون)، سوق الحريم الممشطات بإهمال، دالقات زيوت (الكركار) على شعرهن، وعطور (الريفدور)، و (الفلور دامور)، قصيرة القامة العطرية على أجسادهن، وحاملات لمحافظ من قماش وجلد مغشوش.. منذ

وعينا على الشراء، وعينا على ذلك السوق، لا يعرف أحد متى ولد، ومن أي طينة صيغ، لكن فمه المفتوح في اتجاه المستشفى، كان يدل بوضوح أنه ولد من صلبها.. ورضع من حليب زياراتها، وفيما بعد حين ذبح ذلك السوق بسكاكين تجميل المدينة، ودفنت نكهته في مكان بعيد، أحسسنا جميعاً كأن عنبراً مرَضياً بكامل مرضاه، وأطبائه وممرضيه قد ذبح.

في ذلك السوق كان للعم (حمزة) بيعه وعصبيته.. كان لمحمد أحمد بيعه، لطه وصالح، وثمانية عشر آخرين معظمهم من أبناء الشمال ذات البيع، و كانت لـ (جعفر ألوان)، الذي تضخمت جنيهاته فيما بعد، وأكل عدة نشاطات تجارية في السوق الكبير، بدايات عرجاء شهدنا عرجها في بيع الحلي الفالصو، وأدوات البلاستيك، ومشابك الغسيل، وكشاكيش الأطفال، وعطور باريس القديمة. كان نوبياً متوسط العمر والطول، والشطارة، لا يحمل فكاهة، ولا ظرفاً، ولا يبشر بأي شيخوخة رأسمالية.. وكان باعة السوق، والمشترون وصعاليك التنزه والغزل، ينادونه بالصول، ويسخرون من زيه (الكاكي) الذي لا يعرف أحد لماذا اختص به جسده دون سائر الأزياء. فهو لم يشارك في (عسكرة) ولا حرب، ولا يفرق بين الرصاصة.. والنبق. كان يرطن بمتعة، ويبيع بصبر، ويأكل سندوتشات مغلفة بورق الجرائد. وفي أحد الأيام، سكت دكانه فجأة عن ثرثرة البيع، توقفت رطانته، وتبخرت سيجارته (البرنجي)، ودراجته الرالي، وعاد إلى سوق الطبالي بعد عدة أيام يقود عربة (هنتر) رمادية، ويدخن سيجارة (بنسون آند هدجز)، ويوزع بطاقات على الناس تلم اسمه وعنوانه بأناقة. كان جعفرا

جديداً. . جددته إرادة غامضة وحسده (الطباليون) حسداً وعراً، هرشوا أناقته الجديدة، واستخرجوا من جلدها شبهات. . وشبهات قالوا. . مهرب، ولص، وخمَّار، وتاجر في الممنوع. . لكنهم وقفوا لاستقباله، ووقفوا لوداعه. وتزاحموا حول بطاقاته الأنيقة أسكنوها جيوبهن في لهفة.

وكان (راجا) الهندي هو كهربائي ذلك السوق بلا منازع، كهرباؤه في أعيننا نحن الصغار، وربما في أعين كبار (متصغرين)، فقد كان أنيقاً مسبسب الشعر، وكثيف الحواجب، يحكي بعربية مترنحة، ويبيع حلوى النارجيل والسمسم المحمص، و (آيس كريم اللولي)، وبلاوي أخرى عديدة كانت تهيج الأطفال، وتنرفز جيوب أولياء الأمر. هو واحد من مهاجرين قدامى كانوا يلقبون (بالبنيان). . لسبب لا يعرفه أحد. . جاءوا إلى الساحل فقراء مكارين، واستعمروا جزءا من تجارته بنجاح، وعمل كثير منهم في حلاقة الشعر. . وتفصيل الملابس، واستيراد العطور، وضخ سمات حضارية في تأخر الساحل آنذاك. وقد كان (هارون راجندرا) وإخوانه، مشذبين محترفين للشعر الأفريقي الخشن، لهم زيوت وأعشاب، وقصات وقعوها بأسمائهم، وكانت مقصاتهم تلقب بالمقصات الذهبية مما كان يضفي حقداً على مقصات أبناء البلد التي لم تحظ حتى بلقب قصديري هزيل. وكان (بندا) الأحدب العجوز عملاقاً في تفصيل بدل (السفاري) التي كانت موضة ذلك الحين بتصميمها الصيفي والشتائي ومساحتها الكسائية الواسعة، يتغذى محله من نقود الأرستقراط، وتتصدر ذلك المحل صورة قديمة متجددة، تمثل مأمورا إنجليزيا يقف نضراً بمحاذاة

وطنيين يابسين، ويرتدي بدلة (سفاري) زرقاء لابد أنها من توقيع بندا العجوز. أيضاً (جرد جابور) تاجر القماش الفاخر.. والصندل، وعطور المحلب والسرتية، والجموع، التي كانت تأتي من الهند معشوقة ذات أشواق لتصب في عشق نساء المدينة و(سامانتا) الذي كان يلقب (بالسلك) من شدة رهافته والذي تخصص في الكهرباء، فكهرب بيوت الطبقة العليا بالكريستال، والنجف، وبيوت بقية الطبقات بلمبات النيون. وامتدت كهرباؤه لتسور الأعراس أيضاً. وأذكر أن(راجا) اختفى في أحد الأيام، لم زوجته التي في ضياع العمر، و أطفاله المسببي الشعر، أطفأ كهرباءه، وعاد إلى الهند متخما، وظلت طاولته في سوق الطبالي غافية لعدة أعوام يتحسسها الذباب، وتشمها الفصول الأربعة، ويفكر اللصوص في سرقتها.. إلى أن عاد أحد أبنائه، عاد بشارب كثيف، وبنطال من (الجينز) وعدة متطورة، ليوقظ الطاولة الغافية، ويمشي على درب الغنيمة الذي رصفه أبوه.

كان الفضول يسأله..

أين أبوك يا بابو راجا؟..

فيقول.. مات وأحرقناه..

يستغرب الفضول.. يهب إلى محاصرته بشدة..

كيف يموت الناس ويحرقون يا بابو راجا؟.. فيقول بابو وقد استاء من شاربه الكثيف حتى نعاله (الكموش)..

في بلادنا يحرق الناس بعد الموت... انتهى.

عندئذ يدرك الفضول.. ويستوعب.

كانت للمسلمين مقابرهم المسلمة في المدينة. يرضعونها الأعزاء متبوعين بالذكر، والدعاء، وطلب الرحمة والمغفرة.

للنصارى مقابرهم المتنصرة. يرضعونها أعزاءهم أيضاً. متبوعين بخطب القساوسة، وباقات الزهور، ونقاء العطور، والرب أعطى.. والرب أخذ..

ولم تكن (للبنيان) مقبرة.

وكانت الثغرات التي توجد بين عربات الطبالي المتراصة في تباعد، ممتلئة بعدد من النسوة الدلالات، كن يجلبن القماش، والروائح، والمسابح اللماعة وعروق المحبة وأشياء أخرى من ما وراء البحر، يعرضنها في السوق بضاعة مميزة عالية الشراء، وتسرح بها نداءاتهن وأرجلهن وإلحاحاتهن، في البيوت المجاورة.. حتى أن كثيرات من هؤلاء النسوة الدلالات تمددن في ترف لا يخص البيع، والشراء، دلقن حميمية غريبة على ربات تلك البيوت، ودخلن في غضاريف أهل البيت.. وأكلهم وشربهم، ووئامهم، وتنشئة أطفالهم. من أبرز هؤلاء كانت (محبوبة مبروك)، امرأة من بقايا رقيق الشمال، كانت تنغرس تحت عطش الأسياد في إقليمها البعيد، فعتقتها الهجرة حيث جاءت إلى الساحل عروسا لعامل يوميات بسيط في الميناء، ولم تعد إلى الشمال أبداً. كانت مشلخة، وملساء، .. ممتلئة بتناسق، وذات لسان عريض، وكانت أمّا لجيش من النجارين، والحدادين، ولاعبي الكرة، وفتيات في سن النضج والمراهقة. كنا نستغرب من عدد أبنائها، نحيلهم إلى عدد الولادات المسموح بها لامرأة منذ راهقت، وحتى يئست، ونستغرب. كان بيعها قاسياً إلى أقصى حد، ذلك البيع الصمغي

الذي يلتصق بالمشتري بلا هوادة، ويغتصب شراءه بالإكراه. وأذكر أننا أكلنا من صمغها لبان اللادن، ومكعبات الماجي، وحلوى (اللكوم).. حملنا مسابح خضراء وصفراء، ولبسنا قمصانا وبناطيل، وأحذية، وشالات حول العنق بلا ضرورة، كنت أراها في بيتنا، فكأني أرى أمًّا في بيتها، كانت تطبخ، وتغسل، وتكنس، وتهز الصغار حتى يناموا، وتصنع (كِسرة) الشمال المرة على صاج وفحم، ولولا ذلك العقل الأمي الذي كانت تحمله في رأسها، لشاركتنا الدراسة، وحل الواجبات. ولا زلت أذكر بغيظ الصغار المتقن، تمددها (الشخيري)على وسادتي الأثيرة في ركود القيلولة، وتوقف البيع. وكان أغرب ما فيها ذلك التواجد المكثَّف في كل مناسبة تخص العائلة. حتى باتت في النهاية خالة وعمة، وجدة عندما يقتضي الأمر. كانت تتقدم طالبي القرب في الأفراح، وباكيات الفقد في العزاءات، ومباركي المواليد في الولادات والقائلين.. الحمد لله على السلامة في نقاهة المرض. وحين تعتل أو يعتل فرد من جيشها الكبير، كانت نساء الحي يتزودن بالدعاء، والأسى، ويحملن زادهن إلى بيتها في أحد الأحياء البعيدة.

محبوبة الآن في ضياع العمر، ثمانينية رجمتها السنين بجدارة، وبدت آثار ذلك الرجم فادحة، اختفت تجارتها.. وتفرق جيشها الذي أنجبته من عامل اليوميات.. وعندما رأيتها في أحد عنابر الباطنية منذ عدة سنوات تشكو من خرف غير محدود.. اقتربت من ماضيها.. قلت لها.. يا حاجة.. أريد مسبحة صفراء، وشالاً من الصوف، وعمامة من (التوتل).. فلم تنتبه.. لاك خرفها مزاحي، وبصقه دون أن يعثر بداخله على نكهة.

أيضاً كانت (جواهر برو) صمغاً آخر تسرب إلى بيتنا من خلف لغة البيع والشراء، كانت ثلاثينية من عائلة (برو) الشمالية، ولدت في الساحل، وشربت حساء الدلالة من أمها التي أسست ضجيج السوق، وشاركت في ملء ثغراته منذ كانت غضة، وتقاعدت بفعل مرض في العين جعلها تضيع العملة، وتخضع لغش المشترين. وتعود في آخر نهار الشقاء بحصاد الخسارة.. كانت جواهر نحيفة، ومرتفعة، وتحمل وجه جارية خائفة، كانت تأتي لتفطر، وتأتي لتتغدى، وفي آخر المساء عندما يبطئ البيع، وتصبح النقود عصية في المحافظ، تأتي، تنظف أسنانها بمسواك (أراكي)، تستحم، وتتعطر، وتستبدل ثياب الصنعة التعسة، بثياب ملساء ثم تمضي. كنت أكره صابونها (اللايف بوي)، وعطرها (الصاروخ)، ومسواكها (الأراكي) وحاجبيها المرسومين بكحل شرس، أتمنى أن تصير ضفدعة. كنا نسمع عن خطابها كثيراً، عن رجال وصلوا حتى آذان أهلها ولم يطرقوا.. عن رجال طرقوا فلم يستجب لهم ورجال أرادوها زوجة فاشتبكوا بتمسكها بالعمل الذي كان يعني حياة زوجية نصفها في الشارع العام.. ونصفها في عد حصاد الشارع العام. كانت تتبسم وهي تسرد هيافة خطابها الهائفين..

- سأتزوج بخواجة.. يفهم الدنيا، ويقدر كفاح المرأة.

وفي اليوم الذي تزوجت فيه.. أحسست أنها صارت ضفدعة بالفعل، جاءت بطاقات دعوتها شفاهة على ألسنة تعرفها وتعرفنا، وتحمس أهل بيتنا بشدة.. تاهوا من وصف إلى وصف ومن زقاق إلى زقاق، من (عجل) مثقوب إلى (راديتور) مخروم.. هنأوها في هيصة العرس، زرعوا في كفها قدرا من المال.. وفي كف عرسها

الشعبي كثيراً من المباهاة، وعادوا. . وفي اليوم التالي جاء عريسها إلى السوق، وأسرعنا إلى تحسسه، لم يكن خواجة كما كانت تقول فلسفتها القديمة. . كان مواطناً أصلياً. . لم تمنح سلالته فرصة الهجين العربي. . ملتحياً وأصلعاً، وبلا حناء عرسية، أو زركشة، وقف على طاولتها فارعاً، ورفع صوتاً غير مألوف ينادي في الناس. .

(أبو عشرين بعشرة.

أبو عشرة بخمسة.

أبو خمسة بقرش.

أبو قرش ببلاش).

وظل ساعتين مزدحمتين، أكل فيهما نقود الذروة، وسرب أغراض (الشمالية) العروس، ثم مضى مبتهجا إلى شهر عسله. بعد عشر سنوات التقيت بجواهر برو في السوق الكبير، كانت ممتلئة، ومنكسرة، وتجر خمسة أطفال بأمومة شاقة، عرفتها من صوتها الذي لا زال لامعاً لم يصدأ، حين تنرفزت على شحاذ سألها قرشاً. . صرخت. .

-كلنا في الهوا سوا. . يعطيك ويعطينا. .

اقتربت منها، قلت. . هل تذكرينني يا جواهر. . قالت. . ذكرتك المصيبة، ثم شمرت عن أمومتها وجرت عيالها بعيداً عن دهشتي.

أود أن أسأل (محاسن) الدلالة التي كانت متواجدة أيضاً في تلك الثغرات وذلك البيع. . مشلخة شلوخ بنات (بربر) أو

(المحمية).. صامتة، وهادئة وتقبل القرش مرتين قبل أن تلصقه بقاع محفظتها الجلدية.. لماذا كنت هكذا يا محاسن؟

يصفعني ذلك الشارب المعقد والصارم لزوجها، والذي كان يأتي كثيراً، يحرس ساعات البيع ونصفه المنغرس في الشارع العام كأنه يحرس مستودعاً للذخيرة.

كان لنساء (التكارنة) أيضاً حظهن في تلك الثغرات بين عربات الطبالي.. كن بائعات للفول المدمس، ولب القرع والبطيخ، وثمر الدوم، ولحم (الزرمباق) المستخلص من قواقع البحر.. وكانت حلوى (حلي) الغارقة في السُكَّر، هي فاكهة بيعهن، يرسمنها بكفاءة، ويلونَّها بألوان قوس قزح، فتجر مطر الرزق الصغير.. كن يلقبن بالحاجّات.. هو لقب يختص بأبناء التكارنة.. حتى وهم رضَّعاً صارخين.. الحاجُ والحاجَّة.. ربما لمبالغتهم بالهوس بالأراضي المقدسة، خاصة في موسم الحج، حيث يرتزقون من خير الأشهر المعلومات، وربما لشيء نجهله.. كن حوالي عشر.. أفريقيات حتى النخاع، لم يترك لهن اللون، والأنف، ولسان العجم الذي يحاججن به في ركاكة أي انتماء آخر غير (التأفرق)... ربما كن تشاديات، أو نيجيريات في الأصل، وتمسكن بعباءة الوطن كعباءة ساترة في تلك الأيام. كان أغرب ما في هؤلاء الحاجات، أنهن كن يعشن باسم واحد.. يرتزقن باسم واحد.. حواء.. ولا اسم آخر، كأن سلطة تربوية قررته كمنهج في حي التكارنة. كنا نمارس شقاوتنا الخاصة في التفريق بينهن.. نقول.. حواء (المعمشة).. حواء الصفراء، حواء ذات الصدر المندلق.. وقد بالغت الشقاوة في أحد الأيام، فسمت إحداهن.. حواء كوكب

الشرق دون أن يكون (لتكوكبها) في شرقنا الخاص أي معنى. تلك الأيام قدمت إلى الساحل أغنية (كاروشة) التي صاغها مجهولون في مكان مجهول، وكانت تسخر من الحاجات كافة.. وتصورهن في مقاطع الغناء راطنات سمجات.. حفظناها بشيطنة، وكنا نلدغ بها الحاجات ثم نفر. ومن مفارقات ذلك الزخم (الحوَّائي)، أن إحدى الحاجات، وكانت في الثانية عشرة من عمرها، محت أميتها بعد ذلك بدروس مكثفة، هجرت بيعها، والتحقت بالتعليم المسائي، وتحولت إلى سكرتيرة ذات حاضر شره أكل ماضيها الحامض في بيع الفول واللب، ولحم الزرمباق. أيضاً هاجرت أخرى إلى منطقة الخليج التي بدأت أنوارها تتراقص في تلك الأيام، وعادت بعد عدة سنوات.. حواء (شيك).. بثياب مطرزة، وعطور وغدة. وابتسامة لا تشبه ابتسامات سوق الطبالي. من هؤلاء الحاجات كان يبدأ شراؤنا الطفل.. كل يوم.. يمر براجا الأنيق و المسبسب، وينتهي بباعة الترمس و(الكبكبيق) الذين يومضون في المكان وينطفئون. وفي أحيان قليلة كانت تغرينا لعبة (هبلة) في إحدى الطبالي، فنمارس بكاء أطفال الطبقة الوسطى حتى ننالها.

لا أريد أن أنسى (جحافل) الذي أسميته بذلك الاسم نسبة لوجوده الكثيف، وهجومه المباغت على رواد ذلك السوق، والتقط الطريق الاسم ليناديه به. كان متخلفاً عقلياً بكل كلاسيكيات التخلف، وتوابعه، متسخاً، ومهووساً، وينزف ريالة بلا توقف، كان يتحدث بصعوبة، ويأكل بمزاج، يدهس الوجوه والأجساد بأظافره، ويشد الثياب النسائية حتى العري، وفي بعض الأحيان كان يتسلق البيوت المجاورة، يمد لسانه لرباتها ويضحك ضحكات أشبه

بضحكات تيس. . وكان أهله يأتون من حين لآخر. . يقصون شعره، ويقلمون أظافره، يعطونه سندوتشات من الجبن والبيض والعسل، ويعتذرون لكل متجول يصادفونه، ويذهبون. وقد حاولت طفولتنا في وقت ما أن تخاويه متجاهلة طفولته القاسية، فنحاها بكثير من الركل والعض.

في ذلك البيت الحجري المهروس بالمرافق، والمجرح بالعض الشارعي، كنا نقيم، نقيم بفيزيائنا، وكيميائنا، وعشرتنا التي جاهدت روابط العائلة في جعلها حلوة إلى أقصى حد. . كنا مدعومين باستقرار نزق، وأهلاً شماليين جاءوا إلى الساحل منذ كان جبلاً. . وغابات (مسكيت) مالحة. . شاركوا في بناء السكون والضجة، وأرضعوا الميناء الوليد من عرق أجسادهم حتى كبر. . كانوا يعملون في الشحن والتفريغ، والسكك الحديدية، والمستشفى، وأحواض الملح، والتعليم، والسوق الكبير، وامتلك بعضهم مقاهي، وأفرانا، وورشا للنجارة، وشارك بعضهم كورسا ناشزين في الفرق الموسيقية. ولما استقر والدي في الساحل متنقلاً من سنين عجاف أمضاها في جنوب الحرب، موظفاً في جمارك الحدود المشتعل آنذاك. . استقر تفاؤل الأهل على تنصيبه كبيراً، وتنصيب بيته الذي بالكاد يلم عائلته، بيتاً للجميع. كانت مراسم الزواج الأقاربي تبدأ من بيتنا، علامات الأسى على ميت عزيز، وغير عزيز ترسم في بيتنا. . والعلاقات الزوجية ذات الشوائب، تنظف في بيتنا، وتعاد إلى بيوتها بيضاء من غير سوء. . حتى المرضى ممن تنتقيهم علل طارئة ومزمنة، كانوا يمرون على بيتنا، يتزودون بالرفقة، والشفقة قبل أن يدخلوا من الباب الهستيري

المولول. . وكان للذين تذهب بهم محفات الدخول عميقاً، ويمكثون لفترة في المستشفى، زاد غدائي، وعشائي، قوامه حساءات الدجاج والحمام، والسلطة الخضراء، نحمله نحن الصغار على ظهر الأوامر. وبمرور الأيام تفاقم ذلك الدور الخدعة، ليشمل طلاب المدارس الراسبين، ليعادوا إلى مدارسهم، والعاطلين عن الوظائف، ليوظفوا، والمحكومين في قضايا وهفوات ليكفلوا. . تفاقم أكثر ليشد القادمين من الشمال طلبا للعلاج أو النزهة، أو عبور البحر. . وأذكر أن أسرة من زوجين مسنين وفتاة، قدمت من الشمال، أقامت في ضيق ذلك البيت ثمانية أشهر، وهي تنتظر لا شيء. . وغادرت وهي تحمل كل شيء. . وأن شهرا كاملاً للعسل لمتزوجين حديثين، مورس بكل حماه، ورعشته وتوتر مفاصله في ضيق ذلك البيت، وكان موسم الحج الذي يبدأ من بواخر الميناء عديمة التكلفة، سبباً لكي تنزح نصف بلدتنا الشمالية إلى الساحل حتى لو لم يكن في قلبها نية. وفي إحدى السنوات أردنا توظيف خادمة للعائلة، استعنا بواحدة من قبيلة (البني عامر) التي كان نساؤها ينجذبن للخدمة في المنازل تحت ضغط الفقر، ومتطلبات المرأة، كان اسمها (زهرة)، وكانت تشبه الزهور إلى حد ما. . عشرينية بقميص أخضر وحذاء من القماش، وشعر منكوش ومتسخ. . فخدمت يومين اثنين، التوى فيهما ظهرها، وغزتها (الأرتكاريا) وتلاشت إلى غير رجعة. كان الغزاة يسألون. . أين ذهبت زهرة إدريس؟ فنقول. . تركت الخدمة عندنا، يهزون رؤوس الغزو ويقولون. . ذكرها الله بالخير كانت طيبة. أيضاً وظفنا (جبريل) الطموح والمهندم، والقادم من حي (جابر) البعيد كمساعد

شبه يومي في كي الملابس، ونظافة الغرف، وإحضار اللحم والخضار ولوازم المضغ اليومي، فخدم عدة أشهر تشققت فيها يداه، حتى التقط من علاقاتنا العامة عملا تجارياً في السوق الكبير، واختفى. وأذكر أنني التقيته بعد عدة سنوات، فبدا لي تاجراً أصلياً بكل وقاحة التجارة من ثوب عريض، وكنية، ولحية، ومسبحة، وقسم بالطلاق بلا مناسبة. قال.. باركك الله يا ولدي، وباعني سلعة من تجارته بسعر مضاعف.

الآن استغرب من اتساع صدرك يا بيت.. فيك غرفتان وصالتان، وحمام، ومطبخ، ومخزن، وحوش مكسو بنجيل هزيل وظللت تعمل بكفاءة قصر، لم تشك حتى يسمع المقتحمون صوتك، فيحمرون، لم تصب بصداع حتى يلمح الغرباء أسبرين التداوي على شفتيك، فيذهبون، كانت أسرّتك، وبلاطك القديم، ووسادات قطنك، متكأ للشخير، والأحلام، كان مطبخك ساتراً لعورات الجوع، والعطش، كان حمامك متخماً ينام ممتلئاً، ويصحو ممتلئاً. كان حبل غسيلك الممتد من شجرة النيم إلى أحد الأعمدة محني الظهر، يحمل مضاعفات الناس.

كانت عقاقير تهدئتك عند والدي، يجلبها من ورع مخيف، ونشأة خاصة وسط جيل خاص، وتمزق يرتق داخلياً دون أن يراه الناس.. ينثرها في حلقك صباحاً.. ومساءاً..

- الحياة سلف ودين.

- الستره والفضيحة تتلازمان.

حقاً.. سلف ودين، رد بعضه ولا زال بعضه حبلاً في رقاب المستلفين.

حقاً تتلازم السترة والفضيحة. . وقد كانت السترة عندنا جينات سائدة، أجبرت كل فضيحة على التنحي.

يقول مواطنو الشمال. . أهلنا ذوو الدثار النيلي، عاشقو الأضرحة، والأمثال، والتمر. . إن هديل اليمام يأتي بضيف. . وكنا بحاجة إلى يمام يهدل ليذهب بضيف.

وتقول (ميمونة)، إحدى قريباتنا الواصلات لصلة الرحم بضراوة، وهي تغير من طعم بيتها الشعبي البعيد، بطعم أكثر رقيّاً:

(بيتكم بيت السرور. . دائماً عامر).

نحتفي بتوصيفها احتفاء مراً، نكاد نصيغه أغنية، أو نعلقه ماء مذهبا على جدار الضيق.

هي نفسها كانت تملك عقاراً فاعلاً لتهدئة ذلك البيت، فقد كانت رامية (للودع) الذي كان إحدى وسائل الترفيه المنزلية في ذلك الحين. . تقل تكلفته بتسعين بالمائة عن أي وسيلة أخرى. . كان مجموعة من الأصداف المنجّمة، تستهلك من الانتباه أكثر مما يستهلكه سقوط نيزك. كانت تحضره مصروراً في قماش مقلم. . ترميه بفن مستندة على أمنيات تعرفها جيداً. . وترسم من ذلك الاستناد أفراحاً وترقيات، ونجاحات في المدارس. . كنت أرى الجميع مشدودين. . يمصون لغة (الودع) بتوتر. . ويهضمونها بارتياح. . سيعود البعيد من السفر. . فيقولون. . هذا خالكم، أعاده الله بالسلامة. . الكبير سيترقى ويصبح مديراً. . يبحثون عن والدي في زحمة أعبائه الكثيرة. . يبشرونه بفرح، ويزجرهم بتقوى. . يصبح (ثالث الثلاثة طبيباً). . فينظرون إلي. . طفلاً

ابتدائياً ينحشر في لذتهم دون فهم، ويبتسمون.. آه.. انظروا إلى (الوحيد).. يأتيكم محملاً بالخير، فينظرون إلى أخت تحث الخطى نحو سن الزواج، وربما نقبت أذهانهم عن عدد من (الوحيدين)، ينتمون إلى الأسرة بصلة القرابة، وخمنت من منهم وحيدها الذي سيتحمل بالخير ويطرق على الباب. وعندما يكتمل ذلك الرسم المتقن.. تلم ميمونة ودعها و (بياضها) الذي كان عدة قروش تمثل ثمناً لتلك الجلسة وتنصرف.

أخبرك الآن يا ميمونة..

الكبير ترقى، و(تمدر)، ومات، وبكيناه.

أصبح ثالث الثلاثة طبيباً تنحشر جرثومة الكتابة في دمه.. لكن المسافر لم يعد أبداً.. وتحمل كثيرون بالخير، وطرقوا على الباب، ولم يكن فيهم (وحيد).

آخ.. لقد نسيت (مانوس) الماشطة في وسط ذلك الضجيج، نسيتها بالرغم من وضوحها الواضح، وجسدها الذي يملأ العين ويفيض. إنها جسر الأخبار، والحبل السري الذي يربط أحياء المدينة بعضها ببعض.. ربطا نسائيا بالطبع.. لقد كانت ماشطة، وكانت الماشطة في تلك الأيام وظيفة كثيرة الجاه وكثيرة الحساد أيضاً. لم تكن كوافير النساء العصرية قد اتخذت وضعها السيادي في المدينة بعد، كان (عاصم) المصري قد جاء من قاهرة المعز بيدين ناعمتين، ولسان مسكر، وفن غاز أسماه تصفيف الشعر. افتتح محله في أحد الجراجات، بعد أن ألبسه الستائر، وخشب التيك، وأطلق في أذن المدينة دعاية ملتهبة دخلت في كل بيت، لكنها لم تشد سوى الجامعيات، وبعض طالبات المدارس، وكثير

من السخط الاجتماعي.. أقسم الرجال طلاقاً وقهقهت الماشطات شماتة، وبدا الجراج المزين صامتاً في معظم أيامه إلا من أغنيات شرقية تبث من مذياع راكد على (هنا القاهرة). وكانت (مانوس) إحدى المقهقهات.. كانت تأتي في كل شهر، متخمة بأخبار الزواجات والطلاقات، والتفكك الأسري، ورسوب الطلبة في المدارس، والسفر والعودة، والمرض والموت.. تجلس جلستها الكلاسيكية خلف شعر تحفظه شعرة شعرة.. تمزقه، وتخيطه، وسط قيء الثرثرة، ومزاج البن، والنهار الذي يمتد حتى حلمة الليل. كانت من بيت (هدندوي)، رضعت صنعة (المشاط) صغيرة، وكبرت بها.. وفي فترة من الفترات وقبل أن يصعد بها العمر درجاته الصعبة، كانت (مانوس) هي الماشطة الأكفأ يداً، والأحر سوقاً.

كثير هو الفرح، وكثير هو الحزن، أخوان عدوان يسكنان حياة واحدة، يتناوبان دفة المشاعر، ولا يهدآن.. أود أن أحكي عن فرح خصوصي.. فرح ذلك اليوم الذي دخل فيه والدي يحمل مفتاحا لعربة. لقد دخلت إلى حياتنا الأسرية بذلك الدخول المنشرح عربة (موريس ماينور) خضراء، ذات مقود يمين، وجسد مفلطح، دخلت بأربعمائة وخمسين جنيهاً، هي الآن ثمناً لرغيف خبز مشكوك في مصداقيته الغذائية. كنا قبل ذلك راجلين، أو متعلقين في مواصلات الطبقة الكادحة.. خاصة حين نزور أقارب لنا في مكان بعيد، وكانت أعيننا نحن الصغار تتسلق راكبي العربات الخصوصية وهي تزفر.. أف. هرعنا بأكملنا إلى الطريق.. أسرة دغدغ الفرح مصارينها، فضحكت عدواً، وطوال يوم كامل، أقمنا

في العربة لا نبرح مقاعدها، طفنا بها في المدينة، صفرنا من النوافذ، وتعمدنا حين تبطئ في إبطاء المرور أن نصرخ ونمد ألسنتنا حتى يحقد الراجلون علينا. وقد ظلت تلك العربة المسماة محلياً (الضفدعة) في خدمتنا سنوات طويلة، تنعم بالطلاء، والتشحيم، وتغيير الفرش، والغسيل اليومي، وننعم بنقلها الرشيق والممتع، ورذاذ الوجاهة الذي تنثره علينا كبيت من طبقة متوسطة. وعندما بيعت بستمائة وخمسين جنيها.. أي برغيف ونصف في هذه الأيام، لم نبك لأننا كنا قد كبرنا.

مرحباً يا (جابو) الحنظلي.. لم تكن في عطر الكتابة، لولا أن غرامة فادحة ألحقتها (بموريسنا) الخضراء أقعدتك فيه.

هل لا زلت حنظلياً كما أعرفك، أم أن سياط العمر أذبت (حنظليتك)، وأحالتك إلى عجوز سكر يطعم به الأحفاد.. ما الذي كان يدفعك من جملة عساكر المرور المبثوثين في هرج المدينة صفر وخضر وبيض إلى ذلك الطعم؟.. هل كان ضبطا وربطا عسكريًاً كما تقول المهنة.. أم (قباحة شايقية) كما يقول الطريق.. لقد شهدناك راجلين لا يعنيهم الأمر، وراكبي دراجات.. يعنيهم الأمر قليلاً. وسائقي سيارات.. يملأون دفاترك بالضجة والغرامات.. ومهما يكن، فقد سرى حنظلك في المدينة جنباً إلى جنب مع سكرها، وكنت ركنا.

- 3 -

أريد أن أدخل الآن إلى المستشفى.. ليس من الباب الهستيري المولول، فلم أكن مصابا بمغص أو تشنج أو طعنة، ولا من باب طب الأسنان، فقد كنت أخاف طبيب الأسنان، وأتخيل واحداً من أضراسي العزيزة التي ربيتها سنيناً وتوكأ عليها مضغي، ملقى أمامه بجانب تلك الأضراس التي لا زال يشهق فيها الدم. ولا من الباب الأرستقراطي الكبير الذي كان يدخل منه الناس راكبين. ولا من ذلك الحائط القصير القامة، الذي كان فاضحاً يستعرض سكن الممرضات أمام نظرات التسلق.. فلم أكن أملك نظرات لتتسلق. ولكن من باب طب العيون الذي كان صامتاً، ومؤدباً.. ويستقبل زائريه القليلين واقفاً على قدميه. إنه (الرمد الربيعي).. هستيريا العين الغاضبة صيفاً، والمشاغبة شتاء.. والمنضبطة قليلاً بين هذا وذاك.. ذلك الدمع، والوجع القابضان على الرؤيا طوال ساعات الصباح، والذاهبان بعد ذلك كأنهما لم يكونا أبداً.. لقد ظللت أدخل من ذلك الباب طوال ثمانية عشر عاماً هي حصاد الطفولة والصبا، والفتوَنَة.. أمسك بيد مرتعشة حوض الماء الذي على

شكل كلية، أخضع لغسيل (البوريك)، ومضادات الاحتقان، ومعالجة (نور) الذي كان مساعداً طبياً شديد الإخلاص لكل ما يخص البصر. . كان (نور) يردد بلا توقف. . سيختفي الرمد من عينيك كلما كبرت. . كنت أكبر فأجده معي. . في نفس عمري، وبنفس القوة والفتوة، أعود إلى نور، كبيراً يحمل داءً كبيراً، فيقول. . اصبر. . وقد كان، فقد تخلى عني (الرمد الربيعي) فجأة، استيقظت في أحد الأيام فلم أجده. بحثت عنه في عيني جيداً، في الرموش، والملتحمة، وغدد الدمع، لكنه كان قد اختفى. رأيت الصباح صباحا لأول مرة، فيه رشاقة وتناسقاً، واكتشفت أن وجوه الصبيات التي كنت أصادفها في الطريق إلى المدرسة أو منها، جميلة جداً حين تشرق مع الشمس. لا حين تعرق في الظهر.

المستشفى نفسه كان بناء ضخماً من الحجر، نفس الحجر الذي بنيت منه مساكننا، وبنفس الولادة الناقصة للمعمار الإنجليزي، قسم إلى وحدات تأوي أفرع الطب المختلفة بمشقة، وكانت له رائحة مميزة، هي رائحة الخوف أو الموت لا أدري. وفيما بعد، وعندما اتسعت المدينة، أو تكاثر المرض، بدت تلك الوحدات أمام الاتساع أو التكاثر، كأنها ملابس لطفل، فأضيفت إليه وحدات جديدة، بمواصفات جديدة، لم تكن لها نفس الهيبة، ولا نفس الرائحة. كان إضافة إلى المرضى، والزوار والعاملين، يلم عدداً من هامشيي المدينة، يلمهم بفن، فتبدو هامشيتهم في وسط ذلك الاكتظاظ ضرورة، وليست ترفاً.

من هؤلاء الهامشيين، باعة الزجاجات الفارغة، والزخارف الملونة، وعدد من المتسولين، وعارضات الهوى الفاسد من حي

(الرمل)، ومعجبي الطب والأطباء، ومحتالين كان احتيالهم ساذجاً إلى أقصى حد. من هؤلاء كانت (روضة).. امرأة في أواخر الخمسين، تعض على شبابها القديم بمشقة، وتزعم بشراسة ذلك الشباب المعضوض أن قصائد (حقيبة الفن) التي رددت في الأربعينات والخمسينات، وصفت من الجمال ما وصفت، واخترعت مقاييس صارمة للأنوثة، وحملت جيلا من جميلات القاع إلى القمة، كلها قد صيغت فيها. كانت تحفظ تلك القصائد، ترددها بإلقاء حركي.. وتغنيها بصوت أشيب، يتعثر كثيراً وهو يسري.. وحين تقاطعها ضحكة أو همسة، أو لامبالاة.. تلم صوتها.. تسجنه في مشاعر غاضبة ثم تمضي. كانوا يسألونها.. كيف كتبت فيك تلك القصائد يا روضة.. وكان الشعراء في العاصمة، يطاردون فاتنات أمدرمان.. من (القلعة) إلى (أبو روف).. ومن (توتي) إلى (شمبات)، وأنت من بنات الشرق لم تبرحيه أبداً..

تتمايل أمام السؤال تمايل بنات عشرين حالمات.. هدندوية منهكة العمر، تتنزه فيها العلل، وتبدو مظاهر قصر النظر واضحة في التحام العين بالأشياء. ربما كانت بالفعل فاتنة، في زمان ما.. ربما كانت (تاجوج) أسطورة الشرق نفسها.. لكن فتنتها قطعاً لم تتعد مطرقة محلية تطرق بها على نظرات (أوشيك)، وغمزات (أدروب)، وتواطؤ القبليين للم إنجاز قبليتهم.. ولو كانت ثمة أغنيات، فهي أغنيات صيغت بالربابة.. غنتها حلاقيم القبيلة..

-كان الشعراء يأتون إلى الشرق ليطالعوني ويكتبوا.

كذلك كان (آدم كذب) ابن السبيل الدائم، الذي ظل ثلاثين

عاماً يشوه حكمة الصدقات بقصة مرتبكة عن حضوره إلى الساحل من إحدى الجهات يقصد تجارة، وسرقة أمواله وأمتعته، وحاجته إلى مبلغ صغير من المال من أجل تذكرة القطار حتى يعود إلى أهله. لقد حصد آدم من تلك القصة المرتبكة ثروة تكفي لشراء قطار بركابه وربما هيئة السكة الحديدية كلها. لم يكن يتخفى، ولا يغير معالمه، ولا يرتبك بقصته في مسرح آخر سوى المستشفى.. كان هو آدم المعروف أكثر من جوع البطن.. يكبر مع الناس، يمرض معهم.. يواجه نفس الذين واجههم منذ سنوات أو أشهر أو أيام، وبرغم ذلك كانوا يعطونه.. لعلها الطرافة هي التي كانت تنحشر بين المنح والمنع، وترجح كفة المنح.. أو لعله الغباء. لا أدري.. وفي اليوم الذي أتيح لي أن أخاطبه فيه، خاطبته بالفعل.. كنت أعمل بالمستشفى، وكان أحد مرضاي سيئ التغذية.. قلت له.. يا آدم.. لقد أعطاك جيل آبائنا ثمن التذكرة منذ ثلاثين عاماً، وأعطاك جيلنا منذ عشرة أعوام. ويعطيك جيل جديد في هذه الأيام. تغيرت خطط السفر، وابيض رأسك.. حدثت ثورات، وانقلابات، واندلعت حروب وخمدت وتشرد الجنيه أمام غزو الدولار.. وأصبحت أشهر من رئيس الوزراء.. هل لا زلت تبحث عن ثمن التذكرة..؟

تسلّقني بعينين خمسينيتين، بدتا لي تبصران بمشقة.. كان جلده يابساً.. أسنانه لونها (السعوط) بلون أرض بور، ورئتاه تقيدان تنفساً مهتاجاً يوشك أن ينفلت، قال..

– نعم.. وأنتظر اليوم الذي يعطيني فيه جيل أبنائكم ثمن التذكرة.

ولكي يكتمل ذلك المشهد القاسي الذي يجوس في رحمة المستشفى، يعبث بجيناتها، ويحولها إلى رحمة مبتذلة، كان لابد أن تعثر على (استيفن لوال)، جنوبي بنصف مشلول، ونصف مفتَّل العضلات. وشعر جاهدت زيوت (النارجيل)، والسمسم وأمشاط الحديد في تليينه، وتدليكه، وإبعاده قليلاً عن رؤوس (الدينكا)، و(الشلك) و(النوير) سكان الجنوب البعيد. كان على مقعد متحرك.. يرتدي زي قسيس، وأساور فتاة، وجوارب من صوف بدين على قدميه الهزيلتين، ويرفع بين الحين والآخر كتلاً من الحديد في رياضة لن توقفه على قدميه.

ماذا كان يفعل غريب بهذه التناقضات في هذا المكان؟

لا أعرف.. لقد أخفقت كل تكهناتنا تلك الأيام في النفاذ إلى حقيقته.. لم يكن متسولاً، ولا مجنوناً، ولا نصاباً، ولا بدا لنا عاشقاً مهووساً يتتبع حبيبة.. وحين كنا نسأل آبائنا عن طعمه، نفاجأ بأنهم كبار في أماكن، وصغار مثلنا في أماكن أخرى.. كانوا لا يعرفون. يسدون حنك الجهل ويسكتون. وفي اليوم الذي كبرنا فيه، وكان باستطاعة أعمارنا الجديدة أن تعرف، لم يعد لأستيفن وجود، اختفى من عرق المدينة كأي ترف جففته الحياة.

يذكرني المستشفى أيضاً بكثير من الناس، أولئك الأطباء الذين انتفعنا من طبهم صغاراً، ومن زمالتهم كباراً.. أولئك الممرضين القدامى ذوي الشلوخ، و(الجدعنة)، كان (لبنسلينهم) طعماً.. (لكلوروكوينهم) عضلات يصرع بها الملاريا... (لسلفاهم) مروءة وشهامة.. ولمحاقنهم التي تغلى عشرات المرات في اليوم شخصيات قوية لم يلوثها (أيدز)، ولا التهاب كبد وبائي، كما

يحدث لمحاقن البلاستيك في هذه الأيام. أرفع الثوب إلى موضع الكتف، أعثر على أثر بعيد لتطعيم بعيد.. إنها (قروحة) الجدري، قروحة (عبادي)، ذلك الممرض الشمالي العريض الذي خنق مرة طبيباً لأنه ناداه يا غبي.. فأضحك عدداً من النساء كن حاضرات لغبائه. مما شكل جرحاً نافذاً في رجولته القبلية.. قال.. يسمعن بنات الجعليين..

ثم أمسك بعنق الطبيب.

أولئك الخفراء القادمين من أحياء رثة، وضواحي شديدة الفقر.. الذين أجلستهم الوظيفة على أبواب المنع والسماح، فسمحوا ومنعوا.. كانوا أباطرة خاصة في تلك الأوقات التي تقنن فيها الزيارة بأوامر إدارية، طوالاً عراضاً لهم عقول صبية، وأخلاق جنرالات، يسلقون الناس بالشمس والهجير، يغازلون الفتيات، وينهشون طعام المرضى المكلّف والقادم من بيوت أقاربهم على أوانٍ بيضاء، ولامعة.. ولم أستطع أن أفسر أبداً.. لماذا كانوا غاضبين ومغتاظين، ويحملون مائة عفريت على أنوفهم.. كان (كوتي) النوباوي القادم من الغرب بلسان أعرج، وخطط معقدة، نموذجاً لذلك القيء الحراسي، (كاكا) النوباوي القادم من الغرب بنفس اللسان، ونفس الخطط، أيضاً كذلك.. وابن عوف الشمالي نموذجاً أشد وطأة، وأكثر رسوخا في كل ذاكرات الساحل..

كان من إحدى قرى الشمال، أمياً، وخشناً، وألعن من الأعمى الذي أمسك بعكاز.. كان يرتدي زي أبناء البجة، فلا يبدو بيجاوياً، ولكن شمالياً مفضوحاً إلى أقصى حد.. كان يلقب النساء (بالنساوين) معتمدا على لسان إقليمه البعيد، مما يجرح بعضهن،

ويجعل الأخريات يهبطن بألسنتهن إلى الحضيض ويشتمنه. وكان عداؤه للرجال ونظارات الشمس، وحقائب اليد واحداً لا يتغير. يتربع على سلوكه في كل وقت وفي كل يوم، لدرجة أن كثيراً من الزائرات كن يخفين حقائبهن تحت الثياب حتى لا تنكشف، ينزع لابسو النظارات كساء أعينهم، ويود كثير من الرجال لو كانوا حريماً. وأذكر أنه أرغم زائرا مرة على خلع نظارته الطبية (الفوتوجراي) بحجة أنها نظارة للشمس، فامتثل الزائر لنزوة الخفير ومضى يتخبط في الزيارة وأظنه تاه عن مريضه بسبب ضعف الإبصار. وفي إحدى المرات أساءت يده القوية الأدب دون أن تقصد، كان يمنع امرأة عن الدخول، وتمنعه المرأة عن منعها، اشتبك (المنعان) في عناق أحمق، فغاصت يده في صدرها الطري حتى منابت اللبن. عند ذلك صرخت المرأة.. ابن عوف قرصني.. ابن عوف قرصني.. فتصدى مائة (معتصم) غاضب، لا لينصروا امرأة عمورية الجديدة، ولكن ليخففوا قليلاً من هيجان الدم. ضربوه بمتعة، حتى بدت شلوخ أبناء الشمال على وجهه خيرانا تحمل الوجع والدم. وبرغم ذلك ظل بابه الحصن، مغلقاً في وجه زياراتهم جميعاً. كنا نتطلع إلى الطوابير التي يصنعها ابن عوف بتمعن، نتمنى لو كانت تضم قاضياً، أو ضابطاً في الجيش، أو مديرا دسماً، أو حتى صولاً متقاعدا، لكنها لم تكن تضم هؤلاء أبداً، ويبدو أنهم كانوا يلجون المستشفى من ثقب آخر غير ثقب حراسته. كانت الشكاوى في حقه أكثر من الشكاوى في حق قاطع طريق، وبرغم ذلك لم يغب عن مكانه، كان يحرس الباب بنفس هيمنته، وخشونته وكراهيته للرجال ونظارات الشمس وحقائب

اليد. كان في نظر الكثيرين قبيحا يزدري أعراف تلك الفترة التي كانت قائمة على نقاء متهيج يأكل كثيراً من الرسميات. وفي الفترة التي عملت فيها في المستشفى، كان ابن عوف قد تهدم، صممته الشيخوخة بتصميمها الحتمي، وجثت أمراض كضغط الدم، والسكر، وتصلب العروق، على قلبه، وعينيه، وذهبت إحدى رجليه بسبب (الغرغرينا). كان يحرس الباب بلا هيمنة، ينغرس في كرسيه المرفوع بوسائد متربة، ويغفو، تمد حقائب اليد المكروهة، ونظارات الشمس أيضاً ألسنتها وتدخل، فلا يعرفها، يتلكأ الرجال أمام وجهه كثيراً بعمائمهم، وسراويلهم، وأصوات الرجولة الخشنة، ويدخلون.. فلا ينتبه. وحين أحيل إلى التقاعد كرموه، كان أول خفير يكرم (بالتورتة)، والحلوى، والبيبسى كولا. وحين طالبوه بكلمة المحتفى به الروتينية، كنت أتوقع أن أسمع نزيفاً وذكريات، وربما اعتذاراً اجتماعياً عن ستين عاماً من الحراسة الوعرة، لكن ابن عوف لم يقل شيئاً، مط عينيه إلى الأمام، وتنهد. وبعد عدة أيام كان زوار المستشفى يشتبكون بمنع جديد لإبن عوف جديد، إنه ابنه (البرعي) الذي جاء ليكمل مسيرة الأب.

كانت التربة التي انغرس فيها (المصباح) غارقة في الجراثيم حتى القاع.. لكنه عقمها بطريقة أو بأخرى.. كان مريضاً بالربو، من أولئك المرضى الذين لا يحلو للربو أن يداعبهم، ويلهو بشعبهم الهوائية ويغلقها إلا عندما ينشر الليل عباءته المهيمنة، حيث لا مسعف، ولا إسعاف، ولا ترف بيتي أو جار ينقل الإعياء من طرف المدينة إلى الوسط حيث المستشفى. فانتقل المصباح بإعيائه، وارتزاقه، وحياته كلها إلى المستشفى.. عمل فراشا ليلي

التواجد.. وتزوج بفراشة ليلية التواجد أيضاً، وأنجب عياله الخمسة كلهم من وثام الليل الذي كان يعمل ويعيش.. ويتنفس بفعل موسعات الشعب الهوائية. كان بيته عشة من الطوب العاري تلتصق بأحد الأركان، وناره التي يوقدها للتدفئة، أو صناعة القهوة، جاذبة لمناوبي العمل الليليين وكان أغرب ما فيه أنه لم يثر دهشة أحد، ولا غضب مسؤول، ولولا أن عطر الكتابة اندلق فيه، لما دخل هذه المرايا..

يقولون إن قطط المدينة لم تكن قططا، إنما هي أناس سحرتهم ساحرة قديمة، فاختفوا تحت أزياء القطط.. لكنهم يتكلمون.. كانت المستشفى مسكناً لثلث قطط المدينة، ترتزق من بقايا الطعام المريض، وتتبختر بأجساد شحمانة، ومشاعر متعجرفة.. وكانت المستشفى أيضاً مكاناً مثالياً لتتبع خيوط تلك الفنتازيا، خاصة في الليل حين يهدأ ضجيج الخدمة، ويصبح المكان وعاء لدس المرض في الأجساد أكثر.. كنا نسمع حديث القطط بوضوح.. حديث الأحبة، وعراك الخصومة، نسمع الهمس والنجوى، ونسمع السب.. ونخاف. تبدو لنا تلك الكائنات الأليفة بفعل ذلك الترويض الفنتازي.. كائنات مثلنا.. تعمل وتعيش وهي بأزياء القطط.

كانت القبائل المحلية في ذلك الحين، خاصة قبائل البجة، وقبل أن تهرسها ضرورات الحياة، ويتشتت نخاعها القلبي، تعشق المستشفى بشدة، تنتظر حتى معتل قبلي، فتنتقل القبيلة كلها في ذيل علته.. الرجال، والنساء، والأطفال، وسرعان ما يتحول متكأ المرض إلى متكأ راطن، يتسلى بالعصيدة، ومرارة البن، وإقلاق

راحة النزلاء الآخرين. . كان طقسا مألوفا يتنزه في كل وحدات العلاج، دون تذمر من أحد. . كأنهم أرادوا بإبقائه أن يبقوا على عطش تلك القبائل عطشانا. وفي إحدى السنوات قدم إلى المستشفى طبيب عاصمي، كان (خواجة) في الزي والمشية، يدخن (الغليون)، ويبدو التماع حذائه ملكاً في وسط غباش الأحذية. مر بعنابر المرضى، فازدرته الرطانة، وروائح البن، والطبيخ، وعطر الشاكوين، وبحوش المستشفى، فازدرته الخلاصات المثانية، والمعوية أكثر، تأفف كثيراً، واستمد من (خوجنته) نظاما صارما تحولت بموجبه المستشفى إلى مستشفى، تتحصن عنابرها بسلك شائك، ويفتخر حوشها بزهور الياسمين التي تنتشر على تربته، وتدفق العطر في خلايا المرضى. وكان نصيبه ضرباً عشائرياً، وشروعاً في قتل، فانزوى، وعاد الطقس إلى طبيعته.

الآن يوجد مبيد فعال لذلك الطقس، اكتشفته المستشفى صدفة، وشرعت في استخدامه. . ولا أنكر أنني استخدمته كثيراً أيام عملي في الساحل. .

- نريد متبرعين بالدم. . الآن فورا.

فتفر القبيلة إلى حيها مرتعبة. كان نقل الدم في عرفهم خبثا، يحمله المانح والمستفيد إلى أن يموتان.

ترحموا على (مدينة أوتيب).

إنها (أم تريزا) أخرى بمواصفات محلية، لم تنل ذلك الصيت (الكلكتي) الذي جر(نوبل) السلام من عنقها، لكنها نالت صيتا (أغبش). . طرّزها في القلوب. فقد ربت الساحل كله من خلال

تواجدها في ذلك المستشفى لخمسة وستين عاماً. . مر عليها الساحليون مرضى، وزواراً، وأطباء، وعاملين، ولصوصا، وصعاليك، وربتهم كلهم. . لكن بماذا ربتهم، وهي (الهدندوية) ذات (الفركة) الحمراء، والشعر الممشط بإهمال، ومرتب الفرّاشات الذي تأكله الأيام الخمسة الأولى من الشهر؟

لا أدري. . لكنني أراها أما للبعض، وأختا للبعض، وجدة للبعض، وواسطة خير للجميع في تلك التربة التي تحتاج لوساطة الخير أكثر من احتياجها لعقار (الكلوروكوين).

ما لي أريد أن أخرج من المستشفى دون أن ألقاك يا (منعم فضل)؟

لقد جيء بك من إحدى قرى الوسط، مهتاجاً كبحر، ومسوراً بالجنازير، كنت شيزوفرينياً خطراً تخضع في تلك البلدة لعلاج بدائي. . قوامه تمتمة الأولياء، وبصاقهم على الوجه، والضرب بالسوط حتى الدم. . كانت عيناك أقسى من أن يطالعهما طفل، كتفاك شاهقان، وطاقة الجنون التي تركبك تكفي لتحريك قاطرة. ركنوك في عنبر الأعصاب ثمانية عشر عاماً، كانت وجباتك من مهدئ وكهرباء، ضحكاتك ناقصة وصلدة، وأغنيات القرى التي تجلد بها العصبيين من حين لآخر مأزومة حتى وهي تصف الشعر، و(الكفل) والعيون السود. . وعندما كنت تتجول في الشوارع المحيطة بالمستشفى، تجتاح سوق الطبالي، تكحل عينيك القرويتين بوجوه نساء الحضر، وأزيائهن، وتسمح لجنونك المقموع أن يعاكس واحدة، لم تكن تخيف أحداً. . كانت النساء يمتن قهقهة وهن يسمعن أوصافا كالغزالة، والمهرة، و (الريلة)، كنا نصافحك

بلا خوف، نناديك بالمجنون مباشرة في ثقب أذنك ونشركك معنا أحياناً في لعب الكرة كحارس للمرمى لا يثقب مرماه هدف إلا نادراً . .

أظنك الآن حارساً في ذات عنبرك الذي أقمت فيه، عينتك سيرتك الذاتية القديمة التي يبدو أنها مطلوبة بشدة في سوق الحراس.

- 4 -

دعونا الآن نبتهج بالعيد.. دعونا نشارك في طهو رونقه.. من ليلة الوقفة.. حتى نداء الإشراق..

- الله أكبر ولله الحمد.

كان عيد الساحل طاعماً.. ذلك الملح الذي كانت تغدقه الطفولة على إناء طهوه فيطعم. كنا نتجدد بالجديد، (نتشاقى) في الصلاة، ننحشر بين عظة الإمام، وانتباه الموعوظين، وعندما نمسك بأول عيدية من معيد، يكتمل رونق العيد. وكان أحد أصدقاء العائلة معيداً مبكراً وسخياً، تترقبه الترقبات، ولا تهدأ أبداً حتى يصل. لم تكن منحته تقل عن ورقة (الطرادة)، التي كانت في ذلك الزمان تكفي لعتق رقبة.. عشرات (الطرادات) بكسائها الأحمر، وهيكل الجمل القابض على مساحتها بالكامل كانت تتقافز من جيب سخائه لتحط في جيوب فرحتنا، وفرحات أبناء الحي ممن بكروا وحضروا.

[الله يعمر بيتك]..

ذلك طبقه الفاخر الذي يحمل العيدية إلينا.

كان يعمل في حقل الملاحة، وتموين السفن، واحد من أسرة مبدعة، كلها في مثل ذلك السخاء، شاركت في رسم حنجرة الميناء حتى نطق، وصياغة قدميه حتى مشى، وضخ أوكسجين الحياة في رئتيه حتى تنفس، ربما كان من أصل مصري أو تركي لأن شهادة اللون كانت تبعده عن سكك القبائل.. وشيء في لسانه كان يبعده أكثر، كانت عربته (الفيات) صغيرة الحجم تحمل نزهاتنا أحياناً، وبيته الواسع في مواجهة البحر يلم زيارات عائلية متفرقة. وعندما أممت أعماله بيد السلطة، وبتحريض الشيوعيين المزعج في بداية السبعينات، لم تؤمم ابتسامته، ولا ضحكته، ولا ورقة (الطرادة) التي كان يبكر بها في كل عيد. وظّف ماله، وأبدع لوحته التي شوه أصالتها الآخرون..

كانت ساحة العيد فراغاً في وسط المدينة.. تركته الجهات المسؤولة فراغاً لأجل خاطر العيد، وحرمت على لعاب السماسرة والدلالين، وأصحاب الأموال المستثمرة أن يسيل مقترباً منها. كانت تقع قريباً من الوسط، مظللة بنيم عجوز، وخيام من القماش الأخضر لا تهش الشمس تماماً لكنها تبقيها مكبلة تلسع بمسكنة.. وكانت أشبه بأمعاء شرهة، تلتهم الأجناس والألوان، وفروقات العمر، والألعاب، ورجال الشرطة المنظمين، وحتى خلاصات البطن التي كانت طفلة وبالغة. كان التوهان فيها عادياً، والنشل فيها عادياً، تطبيق أبجدية الحب عادياً أيضاً. وكان بعض منحرفي المدينة يأتون، يغسلون نقاءها المبارك بلهاث الانحراف، ويحولونها إلى ماء عكر، يعج بسنانيرهم. كنا نذهب إلى تلك الساحة، نذهب

برفقة عم، أو خال، أو قريب تكفي ملامحه وعمامته وجيبه المجهز لهذه المناسبة، لإنفاق عيد بلا ضرر. نمارس بهجة العيد كلها، نشارك في ألعاب الطبق والغربال، والرماية، ونؤرجح رؤوسنا في أراجيح الدوار العنيفة. وعندما نرجع في آخر النهار، ترجع معنا الحكايات، والضحكات، وقراطيس الترمس، والتسالي، والفول. وربما رجع معنا صبية منبهرون تعرفنا إليهم هناك. وكان (الزوحي) أحد مشهيات تلك الساحة، كان حاوياً بقوام سحري، وعينين سارقتين، ويدين تحولان البله إلى دهشة، كنا نرى الأرانب والحمامات البيضاء تخرج من فراغ طاقيته، نرى صحيفة ممزقة تنجبر بين يديه، وناراً حمراء تشتعل في ثيابه الداكنة دون أن تقضم خيطاً، ونرى أمواس الحلاقة الجارحة تدخل في حلقه كدخول أي وجبة عادية، وعندما يغيِّب مساعدته السمراء الضاحكة تغييبه المغنطيسي، ويشقها إلى نصفين سمراوين نفر فزعا.. لكننا دائماً ما نرجع عندما يرجع عيد جديد. كانت ثمة قناعة في نفسي، ونفوس رفاقي في تلك الفترة العذبة، أن الزوحي ليس من جنسنا، إنما هو من جنس آخر تواجد في الأرض صدفة. كنا نقارنه بروايات (سوبرمان) الذي هبط من كوكب (كريبتون).. والتي كانت من ملذات تلك الفترة، ننفذ إلى جلده بعيون من خيال، فنرى بدلة (سوبرمانية) مخبأة بين الثياب والجلد. وأذكر أنني التقيت بالزوحي ربما بعد عشرين عاماً من آخر لقاء بين طفولتي، وألعابه، كان مريضاً بالسل، ويسعل بكفاءة.. رقد أمام سماعتي الطبية متوجساً.. فحصته بدقة.. كنت أكشف على علته، وفي نفس الوقت أمسح عن ذهني قناعة الزمن القديم.

أيضاً كانت (حسينة شاشو) إحدى مشهيات ساحة العيد، كانت تبيع ثمار الدوم المعالجة بفن، والمصاغة في شكل أقراص بنية اللون تقسو على اللعاب تشده من شعره وأذنيه، كانت بائعة بتوتر خاص.. تغني لسلعتها أناشيد أشبه بأناشيد الحماس التي يطوف بها عساكر الجيش في الشوارع، يغذون منها اللياقة، ويغذونها بعرق اللياقة. وكانت تصحب معها عدداً من الصبية يشبهون تلاميذ المدارس لكنهم أميون.. يحملون قفاف البيع الشحمانة في الصباح، والتي تنحف شيئاً فشيئاً حتى تذوب تماماً عندما تغرب الشمس. وكان أغرب ما فيها أنها لا تظهر في المدينة إلا في مواسم الأعياد، لم نرها في سوق أو ركن، بالرغم من أن أقراصها المميزة كان يمكن أن تزاحم نارجيل (راجا) ومدمس (الحواءات) لو أنها ظهرت في سوق الطبالي.

لم تكن مهنة (القرداتي) شائعة في الساحل في أي وقت من الأوقات، وكان وجود قرد في المدينة يشكل نغزاً حاداً في فضول الأحياء كلها، تتبعه المتابعة، وتعاكسه المعاكسات، وبالرغم من أن (جبران) لم يكن قرداتيا، بمفردات تلك المهنة وأصولها المتأصلة، إلا أن قرده الذي أسماه (مهنى)، واقتطع له ركناً بارزاً في ساحة العيد كان يجلب بعضاً من الرزق الصغير. كان قردا أميا، بلا عناية ولا تدريب، نستفزه ليقلد استفزازنا، فلا يفلح. وكانت مؤخرته الغارقة في الخمار هي أكثر ما يلفت نظر المعيدين، كانوا يطالعونها ويضحكون، كأنها تروي نكتة. جبران نفسه لم يكن طريفاً أبداً، كان غجريا تواجد في الساحل فجأة، وقيل إنه من صعيد مصر.. كان وجهه ثملاً ممزقاً بكثير من النتوءات، شارباه معقودان، وفي

كتفه العاري وشم مخيف. وكان يدخن السجائر، ويسف السعوط، ويشارك منحرفي المدينة صيدهم العكر في ساحة العيد.. وكانت في بعض الأحيان تتبعه امرأة.. غجرية بوجه ملائكي، وعباءة من الدمور.. وخلاخيل تنغم مشيتها بنغم صدئ، كانت تبدو متأزمة، تغتاظ من غباء (مهنى)، وصعلكة جبران، وتبتسم لأطفال العيد في وهن.

- 5 -

- سؤال جغرافي. . . هل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟

- سؤال تاريخي. . هل كان غردون باشا حاكم الخرطوم يضع زيتا على شعره عندما قطع دراويش المهدي رأسه؟

- سؤال مفتوح. . لماذا يقبل اللبن المغشوش بالماء أن يغش؟

- سؤال (ابن كلب). . هل تقبل بي رئيسا للوزراء؟

هكذا كان يصنع (اينشتاين) كما يلقبه الطريق، جنونه المتفوق. . جنونه المحترم والأنيق، يدور به في المدينة. . من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، يستوقف به الخائفين والمبتسمين، والمتنرفزين، لم يكن يريد أجوبة أبداً، فهو يعرف. كان موظفا عادياً في إحدى الإدارات، يذهب إلى عمله صباحا. . يطالع أوراقه ودفاتره، يشرب القهوة، ينهر ساعيا، يقرأ الجرائد، وفي الظهر يعود إلى بيته. . وفي يده كيس من رغيف أو خضار، وفي أحد الأيام أكمل نصف يومه الوظيفي، ثم ذهب إلى رئيسه. . قال فجأة. . . هل أنت ديك؟

استغرب الرئيس لتلك الفكاهة التي ما جرؤت من قبل أن تقف أمامه.. لكنه مررها بغيظ.. قال.. لا.. طبعا.

- إذن أنت امرأة الديك.. أي الدجاجة.

قال (اينشتاين)، وانصرف موظفاً عادياً إلى مكتبه.

تلك كانت بداية (عمر اينشتاين)، وتلك كانت نهايته أيضاً، التقطه الطريق مجذوبا غير عادي يتابع نشرات الأخبار، والصحف، ونكبة فلسطين، وغياب الحريات في العالم الثالث.. في حلقه أسئلة يطرحها وهو ذاهل، ومن حقيبة جلدية يحملها دائماً تخرج تلك الشهادة الكرتون، والموقع عليها من ثلاثة سياح إنجليز، وجدهم يصورون أخطاء العالم الثالث في أحد الشوارع، وتثبت أنه حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة (ويلز). ولا أنسى ذلك اليوم الذي أمسك بطفولتي فيه، هزّها بشدة حتى بكت ثم قال.. حدثني يا ولد.. أيهما أرق.. بكاء الصبي أم بكاء العاشق.. أم بكاء المجنون؟

ثم ابتعد باكياً.

ولا أظن أن أحداً ينسى تلك الدقائق المتوترة التي غرس فيها إينشتاين جموع المدينة في ساحة الرياضة. كانت المناسبة عيداً للوحدة درجت السلطة على حمله كل عام ووضعه في إحدى المدن، معطرا بالزينة والمهرجانات، والأناشيد الوطنية، وإغلاق المدارس، وبحضور الرئيس شخصيا. كانت طلائع الثورة طالعة ومزينة، كتائبها تكتب علامة النصر، حناجر الجميع تهتف.. يا قائدنا.. يا فارسنا.. يا قائدنا.. يا فارسنا. فجأة تدحرج هتاف

ناشز من مقاعد الدرجة الثالثة، تسلق السور الحديدي الذي يفصل بين قلب الساحة، وأطرافها حتى أصبح على مرمى حجر من حواس الرئيس.. كان يصرخ.. خائن.. خائن.. ثم يتوقف. انهارت ضجة المهرجان انهياراً متوتراً مفسحة المجال للهتاف الناشز، ويبدو أن أجهزة معنية استيقظت مذعورة وهبت لتدارك الأمر. وعندما وصل التوتر حده الذي قد يجر طلقة أو سجنا أو تعذيبا.. . أكمل اينشتاين هتافه الناشز، ألصق الخيانة بزعيم عربي كان على خلاف مع الوطن في تلك الأيام. ثم انصرف عن حواس الرئيس بهدوء.

عمر إينشتاين لم يمت متشردا كعزيزو، ولم يعش في الشوارع (كإيلينا) جامعة الورق التي تجمعه إلى اليوم.. طبته كهرباء شفائية في عنبر الأعصاب بالمستشفى، فعاد إلى وظيفته وعياله، لكنها عودة متأزمة، فقد صمت كأنه أنفق حصته في الكلام أيام جنونه المتشرد.

(إيلينا) جامعة الورق، تلك الظاهرة التي لم تجد عالما للنفس يدق صدره، وأبحاثه، ويفسرها. فمنذ وعينا في الساحل، ورأينا الطريق.. رأيناها، كانت امرأة من أسرة قبطية، بيضاء، ذات أنف (كليوباتري)، وجسد (ريجيمي) وطاقة على المشي والتشرد تفوق طاقات مستهبلي موسوعة (جينيس) في ذلك المضمار، وأحسب لو أن عداداً للكيلومترات ثبت في قدميها، لما استطاع أن يحصي (كيلومتراتها) الجنونية..

كم عمرها؟

لا أحد يسنن بدقة..

من أهلها وسط أقباط المدينة المشيحين بوجوههم وتجارتهم، وصلواتهم بعيداً. . لا أحد يعرف. كانت قد ابتليت بذلك الجنون النظيف الذي لا يترك ورقة على الطريق. . إلا التقطها. . تجمعه في السلال وفي الشنط، وفي فراغات ثوبها، وثقوب أذنيها، تذهب به إلى خارج المدينة ثم تعود جامعة غيره. كنا نحاول تعقبها. . فتلهث أقدامنا. . نناديها. . فلا تستجيب لنداء، ونشفق على جوعها الذي نلمحه في اليباس، والعرق، وانمحاء البطن، فتهرب من إشفاقنا المشفق، وكان ليلها مدسوسا تنفقه في مكان مجهول حتى إذا وضح الصباح وضحت. إيلينا الظاهرة الآن ليست ظاهرة، فقد أصبحت عطراً مميزاً من عطور الطريق، وأظنها ستفتقد لو اختفت ذلك الاختفاء الحتمي.

يسقط الشتاء على المدينة سقوطه (النوفمبري)، ما أخف جثة الشتاء حتى وهي (شحمانة) بالمطر، كنا نتسلى بمراقبة السحاب، نشهد تعريه وذوبانه، ونصنع مراكب الورق. . ندلقها في بحيرات الشوارع التي يفقسها السحاب قبل أن يذوب. لم يكن شتاء فظا كشتاء (الأبيض المتوسط)، ولا رقيقا كشتاء خط الاستواء، كان شيئاً من هذا وذاك. . كانت البيوت تحتمله، الشوارع تصبر على بحيراته، وملابس الصوف تسكته في الجسد. وأذكر أن شتاء غريباً سقط في إحدى السنوات، فقد جن سحابه الدامع فجأة وذرف ثلجا. . تلك كانت حدوتة الساحل في ذلك الحين، تمسحت المدينة بتلك المعجزة، أوصلتها باللواري، وعربات السكك الحديدية، والإبل والحمير، إلى كل بقاع الوطن. . كانت أواصرنا في الشمال تسأل في خطابات مسجلة، ومستعجلة. .

ـ هل حقاً سقط عندكم ثلج أفيدونا؟

نرد في خطابات مسجلة.. بالبريد المستعجل.. نعم سقط عندنا ثلج.. . أفدناكم.

أقاربنا في الغرب، ينغزون الأعصاب بتلك البرقيات الصفراء ذات السمعة الجنائزية، والتي كانت مجرد رؤيتها في مكاتب البريد حتى وهي فارغة تخلخل النفس..

- أوفونا بأخبار الثلج.. هل تضررتم.. نحن في الانتظار.

نوفيهم بأخبار الثلج منذ سقط حتى ذاب، فينقطع إرسالهم.. وتطمئن قرابتهم لعدة سنوات قبل أن يستجد جديد.

يذكرني ذلك بواحد من أشهر (رمضان) البعيدة، استنفر ذات الخطابات والبرقيات.. والاستفسارات.. وكاد يجر مفتي البلاد إلى فتوى معقدة. كان (رمضانا) صعباً، صامته بطون الساحل وشهواته تحت عباءة من صيف خطر. كانت الحرارة حمى في الطقس.. العرق بكاء للخلايا، وموعد الإفطار كأنه موعد للقاء حبيبين. . كانت الألسنة يابسة كالحطب، والأجساد تشتبك بالملاءات المبلولة، تمتص بللها في ثواني..

- أفيدونا.. هل صمتم أم أفطرتم؟.

- طمئنونا عنكم.. هل مات أحد نعرفه؟

تلك كانت(شلوخ) أهل الوطن وأسلحتهم البيضاء في ذلك الحين، شعراء، وقراء، وإخوة، وناصرو أخ ظالم أو مظلوم. وحين دوّن شاعرهم القديم تلك الشلوخ..

(أنا الدابي ان لبد للزول بعيقو..

أنا المأمون على بنوت فريقو.).

كان يدون مناقب تثقبت في هذا الزمان. حتى خيالاتنا نحن صغار الوطن كانت تقتات من تلك الشلوخ، حتى لو بدا ذلك الاقتيات فكاهيا، فقد أصيب بطل لإحدى القصص الرسومية المتسلسلة، والتي كنا نتابعها في مجلة محلية أسبوعية تخاطبنا نحن الصغار، في حادث تطلب نقلا للدم، كتب المؤلف في نهاية الحلقة.. نحن نبحث عن متبرعين بالدم.. وإلى الحلقة القادمة. وفوجئ بعشرات الخطابات الطفلة تعلن عن استعداد كاتبيها بالتبرع بدمائهم لبطل القصة. وفي أحد الأيام قررت لـ (حمادة أزرق) مدرس العلوم في المدرسة الابتدائية عملية لاستئصال الزائدة، وفوجئ الطبيب وهو ينقل مريضه إلى غرفة العمليات، بعدد من التلاميذ فروا من قاعة الدرس، وجاءوا عارضين أن تستأصل زوائدهم الدودية بدلا من زائدة المدرس حمادة أزرق. وبالرغم من أن المدرس مات في تلك العملية التي كانت خطرة في ذلك الحين، وأضحت الآن أشبه بتقليم ظفر، إلا أن أولئك التلاميذ كانوا يبكون وهم يرددون.. ليتهم أخذوا زوائدنا نحن.

ولعل ألقاب (كالدخري)، و(الفنجري)، و(الخزين)، و (أخو البنات)، والتي سادت في تلك الفترة.. وحمل بعضها أشخاصا أعرفهم، لم تسد عن ترف، إنما عن قناعة.. كان مصطفى الدخري.. دخريا في الشدائد.. والنكسات والمظاهرات.. يملك القلب الحديد، والقلب القصدير، يملك الدمع الأصم، والدمع المؤجج.. وجكسا أخو البنات.. أخا لبنات المدينة كلهن..

عاش بالرزق المحدود، والصلاة على أوقاتها والحج المبرور..

أستأذن (طه) الذي سميته (الفنجري) بعد عشرين عاماً من مضيه.. أستأذن لأدخل في صدره الواسع، وصالونه الفسيح.. وأخلاق ثروته التي يجب أن تتعلمها بقية الثروات.. كان من أهلنا الشماليين، تاجرا فضل درجات في الرزق.. فالتاع من ذلك التفضيل، حج، واعتمر، وطاف بغشيان المدينة يستغفر الله.. وانتقى عشرات الأيتام من الذين وضعت أمهاتهن القدور فارغة على النار حتى يناموا.. أمدهم بالخبز والرعاية والتعليم، وصيرهم رجالا.. وعندما اختفى كانوا يقفون على ثبات الأرجل.. ويجلسون على ثبات المقاعد..

أليس فنجرياً بالفعل؟

- 6 -

فجأة يقفز (الدبل) إلى ندبات المسيرة.. يقفز قفزته البدينة التي تزن أكثر من مائة وعشرين كيلو جراماً.. الدبل.. بائع الفول الذي احترمته المدينة، حتى وهو نشال أخرق، ومخطط ماكر لكثير من حوادث سرقات البيوت، والابتسامات.. احترمته بسبب (جرة) الفول التي يصنعها مساء، وتنضب قبل أن يشعل نارها بساعات.. هو أيضاً مهدم، يشبه عزيزو في أصله الغائب، وتواجده الغريب، لكنه كان يؤدي وظائف تستعمر البطن، وتهيج الشرطة والسجون، بعكس عزيزو الذي كان مجذوباً يؤدي وظيفة بلا وظيفة. يقول الطريق.. إن الدبل من أهل(القضارف)، شبعان من خريف (البطانة) الذي لا يجوع أحداً، وكانت هجرته إلى الساحل هجرة الهمج الذين يظلون همجاً. في ركنه الممسك بهستيريا المستشفى المولولة من يد، وفوضى سينما (الخواجة) من يد أخرى، كان يقف.. ممتلئاً حتى لتسمع أنين جلده، كانت عيناه عيني قطة، أنفه أنف أولاد البلد الأصيلين، وصوته الذي يثرثر به، ويضحك به، ويشجع به الفرق في مباريات كرة القدم، كأنه صوت مغن.. كان

أجمل صوت مجرم أسمعه، كان مغنيَّاً بالفعل، مغنياً مستاء يغني للفول والنار، والكباب، والجيوب العمرانة، وواحدة اسمها (أمونة) لم يرها أحد في فضاء حياته المكشوف.. كانت المدينة تحترمه، ترص أوانيها الأرستقراطية، والكادحة على حد سواء، من مغيب الشمس.. حتى أواني سجانيه، وضحاياه كانت تشارك في ذلك الزخم، فكنت ترى الأطباق تتزاحم، وتضارب بالكتوف، تمتلئ لتضحك، وتعود فارغة لتبكي..

أي فول يا دبل.. ينصبك ملكا يومياً من السادسة مساء، وحتى الثامنة؟

أي فول يا دبل، يدحرج ضحايا نشلك من غضب متقن إلى مغفرة متقنة، ويجعل كباراً مهمين، يسعون إلى محبس الخطيئة ليحرروا خطيئتك، ويعيدوك إلى زخم المساء ممتلئاً فائضا، تغني للفول والنار والكباب، وأمونتك التي لم نرها؟

أي فول يا دبل؟

يقولون إن لديك خلطة ابتكرتها، (مكيجت)، بها الفول وذوقته حتى ليسقط المتعشون في حبه من أول لقمة..

لقد حاول الكثيرون أن يبدعوا فولك.. وأخفقوا، تتبعوا طريقتك بدءا من رش الجاز في الفحم حتى غرف الفول في الأطباق وأخفقوا.. فعادوا إلى إبداعك صاغرين. وجاء يوم تواريت فيه.. كانت خطيئتك هذه المرة اكبر من جهد الكبار، وغفران الضحايا.. أعتى من لذة الفول، ومكياجه، وحبه الشرس من أول لقمة.. كنا نقاتل بأوانينا أمام جرتك كعادة كل يوم حين

جاءوك.. كان (كومرا) شرطيا مدججاً بالقسوة والسلاح، وكلاب الشم التي لا يخطئ شمها أبداً، شمتك الكلاب قبل أن تدلق (غَرفة) الفول في الطبق، وتكمل غناءك الذي يمسد عيني (أمونة).. قالوا.. اركب يا دبل.. وركبت، سقطت نعالك (الباتا) كاشفة عن عورة القدمين، فلم تلتقطها.. سف ذيل عمامتك ترابا وملحا، فلم تنهه.. وتنحنح الجوع بداخلنا بغازاته، وهبوط سكره، فلم تلتفت. والآن مرت ثلاثون عاماً.. تغير الطريق، وتهالك القديم، وتجدد الجديد، صارت الجرار تراثاً، والعشاء (بيرجر) ومايونيز، وتفلسف الفول حتى صار يأتي معلَّباً.

ماذا فعلت في تلك الأيام يا دبل؟

تقول أقاويل المدينة.. إنك شاركت في إبادة كمين نصب لمهربي البخر.

ويقول (ديجاقو) بائع الطعمية في الكشك القريب من ركنك.. وهو يضع سيجارة في ركن فمه، ويثبت طاقية رعاة البقر جيداً على رأسه، وينحني إلى الأمام بطريقة توحي بأنه راعي بقر حقيقي..

- الدبل هتك عرضاً..

يصرخ الفضول في توتر جماعي.. عرض من يا ميجور؟

يتحرك ديجانقو إلى الخلف مستنداً على جدار كشكه، وشاهراً لمسدس من خشب.. تفرقوا.. تفرقوا.

هو أيضاً واحد من قيء الطريق وأخطاء الساحل سهلة المغفرة، اقتبس بناءه من شخصية ديجانقو التي كان يؤديها (استيفن) في أفلام رعاة البقر في الستينات، واشتهرت في العالم الثالث شهرة عاطلة

لدرجة أن رضعا لم ينهضوا من حفرة المهد، كانوا يعوجون أصابعهم ويصرخون (هاند أب). . . البطل يطارد الخونة، البطل يؤدب الأشرار، البطل ينزح في وديان الجفاف يشم الأثر، ويقتات من غزال شارد، والبطل يحب فاتنة الفيلم حبا (روميو-جوليتي). كان (خضر جبارة) هو ديجانقو الساحل الذي قلد (استيفن) حتى في نرفزة لحيته، وتسوس أسنانه، وصياغة التمثيل المكلفة. . مجنون، وسكران، حول بيته إلى (مترو جولدن ماير) هزيلة، تغص ببناطيل (لي) وطواقي السعف، وأحزمة الجيش المحالة إلى التقاعد، وتسكع في(هوليوده) الخاصة، التي كانت مدينتنا. . فقط كان بلا خونة، ولا أشرار، ولا حبيبة. وبرغم ذلك كان يصفو. . يصنع طعمية واعية وماكرة. يعود إلى بيته زوجاً عائداً، وينجب أطفالا كأطفال أي أب. وكان بعض مؤسسي مسرح الساحل آنذاك قد رأوا فيه موهبة جديرة بالتربية، حاولوا إغراءه، وجره إلى مسارح، و(اسكتشات) ضيقة، كان يزجرهم، يرنو إلى امتداد المدينة حول عينيه، ويصرخ. .   هذا مسرحي. وكانت للطفولة في جو تمثيله مكانة بارزة، كان يجمع أطفال التشرد من هواة شم البنزين، يعطيهم (ذواقة) الطعمية، وأمان البطل، يتعهد برعايتهم حتى يكبروا.

وفي اليوم الذي رقد فيه في المستشفى مريضاً بتليف الكبد واستسقاء النهاية، رقدت معه دعاءات سبعين ألف مواطن، هم جسد المدينة الساحلية في ذلك الحين ممن عاشوا طرافة دنياه، وألفوها، كان مسدس الخشب ملقى على جانبه، حزام الجيش مدفوعا إلى الأمام بضراوة الاستسقاء، وكان عنبر مرضه محتقنا

بالزوار لا ينام أبداً. وفي اليوم الذي مات فيه، رفع آخر فيلم لاستيفن من قوائم العرض، مات تذوق الناس لديجانقو الحقيقي، كأن خضر جبارة هو الذي كان يحييه. خرجت مسيرة مواراته من حي (جابر) التعس، من مساكن الخشب والخيش، والصفيح في كتف المدينة الجنوبي، مرت بصدر المدينة، وبطنها وركبتيها، وانتهت في ذمة أشجار (المسكيت) المالحة. كانت تحصد في كل حي ناسا، وفي كل شارع دمعة. لقد تسلقنا المسيرة منذ بدأت وحتى انتهت، كنا صغاراً على تعاطي جرعات الفقد.. لكننا تعاطيناها..

والآن وبعد كل تلك السنوات، وبعد أن أصبح طعم الموت في الحلق عادياً كطعم البن والفراولة.. ونمت للمدينة قسوة في القلب، وطمع، وسمسرة، أتساءل.. هل كنا سنبكي على حمزة، وعزيزو، وخضر لو ماتوا بنكهة هذه الأيام؟

جثا الصيف على صحو المدينة بكيانه الرطب وشمسه الدامعة، وإذلاله الذي لا ينجو منه أحد. إنه أغسطس. أغسطس الرمد والسحائي، والبعوض والهجرات، والعودة بمياه الشرب إلى مجد الحلل والجرادل.. كان ماء المدينة منة من نبع (أربعات).. نبع انبثق سُكّراً في وسط الملح، يتغذى من دمع الشتاء الماطر، وتقل فيه النخوة عندما يقبل الصيف. كنا نشارك في إرواء حينا، ننقل الماء من مواسير نحتت تحت الأرض، تستقبل الزفير الواهن لمياه (أربعات)، وتقسمه على العطش والوسخ بمشقة. كان عرق المدينة مالحاً إلى أقصى حد، ألسنتها جافة، وكهرباء الضوء والمراوح في ذمة العطب. وكان مهاجرو الشمال والوسط غالباً ما يتسربون،

يعودون إلى أصولهم أسخياء، ومسرفين، وساردين قصصاً عن العز في الساحل، حتى إذا ما عاد الصحو.. عادوا.. أيضاً. كان مقتدرو المدينة يملكون بيوتاً من خشب على البحر بعيداً عن الضجة، أنشأوها بدوافع تبدأ من طلب الهدوء إلى الخيانة الأسرية. كانوا يتسربون إليها مساء، ولم تكن تمنحهم صيفاً معتدلاً، ولا شحيح الرطوبة. فقط إحساساً بالاقتدار، ولا شيئاً آخر. وقد تسبب ذلك الحي البحري البعيد فيما بعد في العديد من مشاكل الأسر، اعتقل مشبوهاً، وحوكم في عشرات القضايا، وأعدم ببلدوزرات الخير. وأظن أن رياضاً للأطفال، ومتنزهات للمعاقين، ومدارس لإحياء ذكر القرآن قد نمت على أطلاله.

كذلك كانت للساحل بقع لطيفة، ناعمة الهواء، أبعدها عن المدينة بمسافات طويلة، ودلقها خلف طرق وعرة، وجعل المصطافون يطاردونها بالرحلات والشواء، وحتى بقضاء أشهر العسل. وقد كانت رؤوس الأموال في ذلك الوقت من الجبن بحيث إنها لم تضع لمستها المنظمة في تلك البقع أبداً.

يقولون إن المدينة حفرة.. حفرها الأجداد بأوامر إنجليزية. وسواعد من متلقيي الأوامر الوطنيين. انظر.. كيف يحبو القطار ويلهث ويشتكي ببكاء ماكينته حين يخرج منها.. انظر كيف يعدو ويغني بصوت ماكينته حين يدخل.. سنوات ونحن أسرى لتلك الفنتازيا.. نرهف آذان الطفولة لبكاء القطار وهو يزحف خارجا، نسمعه يردد..

(نفسي انقطع.. نفسي انقطع).

نرهفها وهو يعدو داخلاً.. نسمعه يغني..

(مرحبتين وصلنا خلاص. . مرحبتين وصلنا خلاص). وعندما قامت الطرق بعد ذلك، وطغت بسرعتها على نفس القطار المنقطع، ما عاد أحد يعتقد، ولا يفتي، ولا يرهف السمع لعواء ماكينات السيارات.

كان في وسط المدينة بجوار مركز الشرطة، وعدد من بيوت الدولة الصغيرة، فنار شاهق أشبه بالبرج، أضيئت قمته بضوء أحمر لهداية السفن التي ربما تضل في تحسسها الغريزي لجسد اليابسة، كان الناس يقولون إن قمة هذا الفنار، تقع في مستوى فوهة الحفرة التي شيدت بداخلها المدينة، وكانت قاعدة الفنار المنبعجة ككرش، هدفا للعبنا في أحايين قليلة، وأذكر أن مواطناً خاسراً من أبناء الشمال اسمه (ود جُضُل) تخصص في اقتراف ذنوب مضحكة كسرقة خراف الأضحية، ونذور الأضرحة، وعيديات الأطفال، ووضع تحت المراقبة الدورية، تسلق ذلك الفنار حتى القمة، وبدأ يرسل مطالبه عبر مكبر للصوت أجبره على التسلق معه. . كانت مطالبه غاية في التفاؤل، ويبدو انه استقاها من دراما سمجة. . عربة، وعروس، وبيت. . ورفع المراقبة. . وإلا سيسقط من ذلك العلو. وكان اليوم الذي اختاره لممارسة تلك الرياضة القاسية، يوماً مغايراً. . إنه يوم زيارة الرئيس للمدينة. تلك الزيارة التي كان الساحل جائعاً ينتظر خيرها، وكسيحاً ينتظر يدها الساندة، ولا يعرف أحد حتى الآن. . . هل خطط ود جُضُل لتلك الفكاهة منتهزاً زيارة أعلى توقيع في البلاد ليبصم على فكاهته، أم أن شيطاناً صباحياً أوحى بها إليه وهو يدعك عينيه بعد ليلة طائشة.

بدأ موكب الرئيس من مطار المدينة البعيد، أكل شوارع طاعمة

للغاية، وشوارع تسد النفس. . أحياء راقية، وأحياء رثة حتى وصل إلى الوسط. . مر أمام مركز الشرطة، وتحت الفنار الشاهق مواجهاً وجه ود جُضُل المسخوط، والمبهدل، كان مدعوما بالهتاف، والسواعد الخشنة والزغاريد، وتجهم الرسميين الذين أحرجتهم وظائفهم، فخرجوا متجهمين. . فجأة هتف متسلق الفنار. . هتف منددأ بالرئيس ورئاسته، ومجلس ثورته الغبي، مستخدماً يداً مهووسة وملامح متشنجة، ومكبر الصوت الذي شاركه الإثم دون أن يدري. . ويبدو أن قائد الأمة المحاط بكل تلك الإحاطة ظنها تحية مجنونة من متشنج موالي، لأن يداً رئاسية لوَّحت، وابتسامة معطرة أطلت من خلف نافذة عربة الضيافة. ولا شك أن مطالب ود جُضُل قد وجدت آذانا مختومة بالشمع عند السلطة المحلية، فقد قضى يومين حارين، وجافين، وجائعين، وبعيدين عن أيام الآدميين. . خطب الرئيس، وافتتح، وأغلق، وسمع أناشيد المجد، والثورة، قبل طفلة، وابتسم لعامل ووبخ مديراً، ومد عنقه الرئاسي لعقود الزهور، وسافر. وفي اليوم الثالث شهدنا هبوط (ود جضل). . هبوطه المترنح والذي أهّله ليصبح معتقلاً سياسياً بعد أن كان سارقاً مضحكاً لخراف الأضحية، ونذور الأضرحة، وعيدية الأطفال.

- 7 -

كانت حادثة ود جضل الفنارية قد حولت قاع الفنار إلى (لحم رأس)، اختلط أبناء حي (جابر) الغبش، بأبناء وسط المدينة الناعمين، وأبناء حي كوريا ذوي التطرف الغوغائي، والتشجيع بالحصا والعكاكيز في مباريات كرة القدم، بأبناء حي (الأغاريق) الهادئين والموزونين، . . حتى بائعات الهوى الفاسد من حي الرمل المتسخ، تواجدن في القاع وحذرات، يلقين عيناً على ود جضل، وعيناً على مركز الشرطة الممدد (كبعبع). وكان أغرب ما في تلك الفرجة النهارية أنها شدت مرضعات، وحوامل، وتجارا وسائقين، وموظفي خدمة نهارية كانوا يوقعون في دفاتر العمل ويتسربون.

في وسط ذلك الزخم الممشط بالفضول، تعرفت إلى (هادي)، وشلته من أطفال حي (العظمة). ليست (عظمة) اليوم القائمة على تكنولوجيا الفاكس، والحاسوب، وعربات (البي. ام)، والشبح، لكنها عظمة الأمس، عظمة البيوت الحجر ذات الغرف، والجراجات، والنجيل الأخضر، وعربات التاونس، والزفير، والموسكوفيتش. عظمة التبرع في الحفلات الخيرية، والسفر

بقطارات (الإكسبريس)، والتسوق من مخازن (منى) و(الوردة البيضاء). . كانت طحنية اللوز، والجبن المضفر وعصائر الفيمتو، والكرز والتفاح، ، من كماليات بيوتنا، فوجدناها من ضروريات حي العظمة. وحين شاركنا في عيد ميلاد (هادي) السعيد، سمعنا أغاني (البيتلز) لأول مرة، سمعنا ببابا، وبماما، وبالدادة (سرورة) وقلنا (هابي بيرث داي تو يو)، دون أن ندري أنها (فرنجة) متقنة لعبارة (عيد ميلاد سعيد).

لا أذكر الآن كيف كان هادي يبدو، لابد أنه كان طفلاً مليحاً، لابد أن عينيه كانتا مبتهجتين، وشعره راكضاً إلى ما بعد كتفيه. . لابد أنه كان يملك دراجة، وكرة، وطاولة منزلية (للبنج - بونج). . ثلاثة أشهر فقط لم تكف حتى لنضحك على (لجنته) اللسانية، وخوفه من ذباب البقر، . . لنعلمه الطيش كما ينبغي، ونجره إلى بث(حمزة) المسائي، ونارجيل (راجا)، ومدمس (الحواءات). . واختفى هادي. . اختفى كأي جزيرة في فيضان نهر. . انغرس في قلبه سيخ مسنن وهو يتسلق سورا لحديقة في العاصمة.

كان اختفاء هادي، اختفاء باكياً لنا نحن أبناء وسط المدينة من عظمة العظمة، كنا نحسه روحا أسيانة تتمدد في الفرجة واللعب، ومداخل البيوت، لازمنا ذلك الإحساس فترة، إلى أن ظهر (أبناء عظمة) آخرون صادقونا وقضوا عليه.

انفتاحنا على حي العظمة، قرب إلى تعرفنا أحياء أخرى كنا نراها في السابق بعيدة ومنغلقة. . تعرفنا إلى حي الممرضين، ذلك الحي الذي نشأ بنشأة المستشفى، كان يسكنه ممرضون، ومساعدون طبيون، معظمهم من أبناء المنطقة، أو أبناء مناطق

أخرى لصقوا بالمنطقة، وكانت السكنى في ذلك الحي مستديمة ومتوارثة، فقد درج سكانه من كبار السن على توظيف أبنائهم في المستشفى، حتى إذا تقاعدوا لم يتقاعد البيت، وظل مرافقا لمسيرة العائلة، كنا نشاهد زملاء لنا من سكان ذلك الحي، ينتزعون من مقاعد الدراسة، وهم بالكاد يقرأون ويكتبون، يزرعون في تسلسل وظيفي مضني، تتساوى قممه وقيعانه.. لم تفعل في ذلك الحي شيئاً، ولم نخرج بشيء فقد كان كسولاً بلا نشاط، تحس بطفولة عياله ناضجة، وكثيرة التجاعيد. ولعل (قسومة) الممرض الصبي آنذاك، والذي كان زميلا سابقا، قد تواجد بشكل أو بآخر في كثير من لحظات عللنا الطارئة. بالقرب من ذلك الحي، كانت توجد بيوت الأطباء.. إنها بيوتٌ (سينما) كما يقول الطريق المتلظي.. واسعة، وظليلة، وغارقة في العز، فيها حدائق، وببغاوات، وأسماك للزينة. من تلك البيوت كان يخرج خبراء المرض نشيطين، يدخنون (البايب) و (السيجار).. يتريضون بنهج إنجليزي، يلعبون الجولف، والتنس، وينظمون رحلات للصيد، ويخرج عيالهم أنيقين ومبتسمين. كذلك تعرفنا على حي (المدينة) القديم بسوقه الواسع، ولافتات أطبائه، ومحاميه، ومهاجريه الذين كانوا من الشمال والوسط، والغرب، وبعض متفلسفي القبائل المحلية، الذين خرجوا عن بداوة قبائلهم، ومخاطها العشوائي، وأنشأوا لهم وضعاً في الساحل. كان ذلك الحي يمسك بنشاط الرياضة بقوة، فيه عدة فرق لكرة القدم، وأفرز إلى النجومية المحلية لاعبين، ومدربين، ومشجعين، وأوغاداً لحرق العمائم، وضرب الحكام. وكان (جوكو) المنفعل، والغاضب دائماً.. أحد

سلاطين تلك (الوغدنة).. كان موزعا لسجائر التهريب المطارد.. من أولئك الموزعين الذين يشمون عرق الشرطة قبل أن يفرز، ويفرقون بين مزاج مدني مسالم، ومزاج عسكري جاء يتلصص. وكان تشجيعه للكرة نارياً يحرق في كل مباراة عمامة، ويضرب في كل نهاية خاسرة لفريقه، حكما لدرجة أن اعتذار الحكام في مباريات فريقه بات أمراً حتمياً. كنا نراه أحياناً في مباريات فرق الروابط، عريضاً كشاحنة، بقميص مورد، وسروال أحمر، ونظارة (كشب)، تتسلقه التحيات والسلامات، وتركض عبارات مثل البطل، و(الحربي)، و (أخو البنات) لتتعلق بسبيب أذنيه. نتمنى أن ينفعل.. حتى نرى ذلك الطقس الذي بات من أشهر حكايا المدينة. يقول أحد الحكام ممن كانت تربطهم بالملاعب صلات طيبة، واضطر إلى قطعها من أجل جوكو.. . وظل مسؤولو الرياضة يطاردونه ليرجع..

- لن أرجع إلا إذا مات جوكو.

جوكو توارى عن المدينة توارياً متوقَّعاً. . أسقطته شحنة دسمة من سجائر التهريب باعها لعساكر السلطة وهم في أزياء عرب سذج.. كانت سقطة الشاطر، وكان استرخاء الملاعب، وتبسم الحكام. وقد حاول أحد إخوته أن يحيي ذلك الطقس، ويحافظ على سمعة التشجيع المعتدي.. أحرق عمامة في إحدى المباريات وأمسك بحكم لكن ضربة مباغتة هزت أسنانه، فتخلى عن مشروعه وانزوى يشجع بأضعف التشجيع.. الصياح والشتم.

ساحة المولد أيضاً كانت توجد في حي المدينة.. كانت في الأصل ساحة رياضية، تنشغل طوال العام بمباريات فرق الروابط،

وتدريبات الفرق الكبيرة، وإيواء احتفالات العلم والطفولة، والوحدة وخطابات بعض المسؤولين الزائرين الذين يعشقون الخطابة في الهواء الطلق أمام جمهور يسمعهم مجبرا. أيضاً كانت لـ (شمشون أفريقيا) الذي يأتي من العاصمة من حين لآخر إبهاراته في أكل النار والحديد، وجر الشاحنات والنوم على ألواح المسامير. وعندما تهل ذكرى المولد، تستحي تلك النشاطات، تنزوي بعيداً مفسحة مكانها للذكرى المعطرة أن تعطر. كنا ننشغل بتلك الذكرى، ننشغل انشغال الصغار الذين لا يعنيهم ذكر ولا ترنح، ولا نوبة ولا طار. نقتفي آثار حلوى السكر، وحلوى السمسم، والفول، والنارجيل، وعربات المرطبات بليمونها وشعيرها وباعتها المشمرين عن سواعد الكسب، وبليلة (اللوبيا) التي لم يكن نجمها يتلألأ إلا في ذلك الموسم. وعندما نرى(راجا) الهندي متوسطا شراسة الموسم، أنيقاً ومسبسب الشعر، نحييه بقطع الفضة، ويحيينا بنارجيله وآيس كريمه اللولي. وكان من المألوف أن نعثر على (آدم كذب) محتال المستشفى القديم، وابن السبيل الدائم.. يرتبك بقصته على عدد من الناس.. يرتبك بها بتعديل روحاني خصب يتوافق مع الذكرى العطرة، كانت أمواله قد سرقت في هذه المرة وهو قادم من قريته البعيدة لإحياء ذكرى المصطفى. يردد الناس.. عليه الصلاة والسلام، ثم يلكزون جيوبهم الغافية.

وكانت (شيتا) من الوجوه التي صاحبت الموالد لزمن طويل، كانت حبشية مبتورة الساقين لكن عافية ملفتة للنظر كانت تنز من وجهها الشحمان، كان تمركزها في مدخل الساحة، ينهب من جيوب الدخول، وجيوب الخروج، كان صوتها رقيقاً، وكانت

توسلاتها الناهبة فيها رطانة، وحين يتقدم الليل، و يخف الزحام وتصبح الصدقة احتمالا محرجا، كانت تلم عاهتها وتذهب في سيارة مؤجرة، كان سائقها يحمل المبتورة على ظهره متفاديا بها الزحام حتى العربة.

كان الجانب المترنح، والذاكر من المولد يبدو لنا هرجاً طاحناً، لكننا نقتحمه، مجموعة من السرادقات أضيئت بالنيون، وتحدثت بمكبرات الصوت، ودلقت أطنانا من الشعر الملحن والمغنى بأصوات فلكلورية، وتمايل في وسطها رجال نظيفون، ومتسخون.. ومرقعو الثياب. كان البخور يعوي بكثافة، العرق في الأجساد يعوي بكثافة أيضاً، وكان سرادق (الختمية) هو السرادق المحبوب والسخي، لم يكن يختلف عن باقي السرادقات كثيراً في ترنحه، وتمايله، وخطب الهوس، والخرافات، لكنه كان يكرم الضيف والمتطفل على حد سواء، يكرمه بشاي القرنفل، وقهوة القرفة والزنجبيل وشراب (البيانكا) الغازي الذي كان (كولا) محلية. كن النساء أيضاً يجئن إلى ساحة المولد، يتزين تزين العرس، ويتشتتن خلف الساحة أكواما ضاحكة، ومثرثرة، ومراقبة لشقاوة الأطفال. وأذكر أن مكبرا للصوت كان يعنى بالضياع والتوهان، لم يكن ينقطع عن المناداة.. عثرنا على صغير ضائع.. على أهله الحضور لاستلامه.

الآن أقول إن ذكرى المولد التي كانت تستلم مشاعر المدينة اثني عشر يوما. كانت تستلمها بسواعد قوية.. إنها الذكرى الحية التي لا تشبه أي ذكرى أخرى.

أيضاً تعرفنا على حي السكة الحديد، ذلك الحي القائم على

سواعد الخشب، وفوضى الجوار، وضجة القطارات التي تخترق النوم واليقظة.. كان معظم سكانه من العاملين في ذلك المرفق الحي آنذاك، مطعمين بسكان آخرين يعملون في مرافق أخرى، لم يكن يبعد عن وسط المدينة كثيراً، لكن ثمة بعداً سلوكياً كان يتواجد في علاقته بالوسط. إنه البعد الصارم الذي تفرضه المدينة على أحيائها، تسمي حيَّاً (العظمة)، وتسمي آخر (طردونا) وتنسى أن تسمي ثالثاً على الإطلاق. وأذكر أننا التقينا في مساء خريفي، بأحد العاملين في مدرستنا، كان عسكريَّاً متقاعدا جره الرزق التقاعدي ليعمل فرَّاشاً بالمدرسة، (يتفرش) نادراً، ويقضي نهار الوظيفة في بيع الشاي للتلاميذ وإيقاد فتن صغيرة بين عدد من المدرسين.. وكان يقيم في ذلك الحي، كان مندهشاً إلى أقصى حد، وصاح فينا..

- ما الذي جاء بأولاد (المصارين البيض) إلى حينا؟.

كان تعبير المصارين البيض ولا يزال، تعبيرا محلياً خالصاً، لم يحظ بتلك الشهرة التي يحظى بها تعبير (العروق الزرقاء) في أوروبا، كان يطلق على أبناء الطبقات العليا والمتوسطة، لا أدري من أين جاء، لكن مطلقوه لو درسوا علم التشريح ووظائف الأعضاء، وساحوا في كيمياء الجسد، لبحثوا عن بديل أقل فظاعة. ومهما يكن، فإن الطبقة الوسطى التي كنا ننتمي إليها، وكانت في عرف المجتمع مصارين بيضاً.. لم تعد كذلك الآن.. فقد طردتها مصارين المال والنفوذ الوافدة مع الطمع والسمسرة من لونها.. وأخذته.

من الأحياء التي ارتبطنا بها بصداقة قوية. حي (الأغاريق) إنه

واحد من الأحياء التي عرفت الأناقة مبكراً، وحافظت على تلك المعرفة، كان فيما يبدو قد ارتبط بمهاجري اليونان القدامى، يني، وقرياقوس، ونيكولا، وكثيرين غيرهم، لكن ذلك الارتباط بدأ ينفض شيئا فشيئا، بموت أولئك، أو رجوعهم إلى ثدي بلادهم الأم، وتشتت سلالاتهم في الأحياء كلها. ولم يبق في النهاية سوى اسم مهاجر، يضم أرستقراطيين وطنيين. كانت مساكنه شديدة القدم لكنه قدم متجدد يستهلك أصباغ المدينة وديكوراتها باستمرار، كانت كنائس النصارى المرسومة بدقة، والمزينة بخيالات العذراء، ورضاعتها، تغذي أصالته المهاجرة، وعيادات الأطباء، ومدرسة اللغات، تجعل من تواجده ضرورياً. وكان بعض زملائنا الذين (تبرجزت) نكهتهم مؤخراً، قد أكلوا أجزاء من ذلك الحي، كنا نباغتهم بالزيارة، ننافسهم في مباريات كرة القدم، وربما وقفنا معهم ساعات نراقب صبايا مدرسة اللغات في أزيائهن الكحلية، وابتساماتهن الغارقة في الشبع والنعمة.

كان (حبيب العجوز) من سكان ذلك الحي، جدًاً في السبعين أو الثمانين. . ربما سكنه متكئاً على أرستقراطية طارئة لأبنائه، كان سفيهاً مشوه اللسان يتنفس بصعوبة، ويمشي بخرف، ويطارد بنظراته الذائبة خيالات الصبايا والصبيان التي تتواجد في محيط ذوبانه، وربما امتدت يده لتلمس جسداً غبياً أو وجهاً لامعاً بالطفولة، اقترب من شيخوخته دون فهم. كان الأباء يعرفونه بترف، الأمهات يعرفنه بارتعاد، والنصائح الأسرية المكثفة تحذر كثيراً من حنانه المزيف، وأذكر أن نساءً مهندمات كن يخرجن من بيته، ينادين على سفاهته دون أن يجيب، وأن رجالا بشوارب

مبعثرة، وياقات (فراشية)، كانوا يلاحقونه، يهتكون سفاهته المطاردة، ويجرونه إلى المنزل، يغيب فيه أياماً ثم يبزغ من جديد. كنا نقارنه بأجدادنا كثيراً، نراه مختلفاً، وكثير النتوءات، ونستغرب. وحين اختفى عن الحي ربما بمطرقة الموت أو الخرف المتقدم، لم يسأل عنه أحد.. حتى جيرانه اللصيقين بدوا لنا أقل توتراً، وهم يطلقون أبناءهم لمشاركتنا اللعب.

حي (الثورة) أيضاً تعلمنا مناكفته من حين لآخر، كان بعيداً، ويأكل مساحة واسعة من شرق المدينة، وكان تكدس أقاربنا في مساكنه البسيطة، وبيئته الشعبية سبباً لهذه المناكفة. وقد كان لذلك الحي ثوب صناعي بدا أنيقاً برغم تهلهله، فقد كانت تشتعل في أطرافه مصانع الزيت، والصابون، والمبردات، وتفتح عشرات المخازن أحشاءها لتهضم سلعاً متنوعة، صادرة أو واردة.

كانت الأحياء البعيدة، بعيدة عن طاقة المشي والمغامرة، تمسك بأطراف المدينة من يد، وبأطراف العراء من يد أخرى.. خاصمتها الكهرباء، وتكبرت عليها مياه المواسير، وبدا الذباب مواطناً أصليا.. يسكنها الناس خشية ألا يسكنوا، وتمن السلطة المحلية عليها بشوارع منتوفة اللحم، وباصات تخدم بعمر آخر غير عمرها الذي حددته الصناعة. كنا نشمها ونحن نعبر بسيارة العائلة، أو نزور فيها أقارب. أو نتسوق من تسوقها المميز كاللحم الذي كان يذبح في حي العرب بعيداً عن رقابة الذبح، وفلسفة البياطرة، وكان لحماً فذاً. أيضاً تجارة الفحم، والحطب، وجاز الوقود، وخراف الأضحية التي كانت مستترة في أحد الأحياء البعيدة، لا تظهر في السوق الكبير إلا تخفياً وعلى استحياء.

من تلك الأحياء يأتي ديجانقو، والدبل، وآدم، والحواءات، يأتي رواد سينما الخواجة، بقياساتهم التي تلائم صعلكة ساعتي الفيلم، يأتى المرضى، والمشاغبون ومعاكسو بنات المصارين البيض.. يأتي وباء (الكوليرا) والنزلة المعوية، وتأتي مواكب التأييد التي يمكن أن تؤيد (بن جوريون) لو طاف بعربة مكشوفة في شوارع المدينة. لقد عاشت تلك الأحياء تحت وهم الكساء المديني سنوات طويلة.. رضعت من ديمقراطية الستينات غزلا انتهى بإغلاق التصويت، ورفع صناديق الاقتراع، ومن ثورة الاصلاح المزعومة بعد ذلك بنجاً موضعياً.. خدر الجلد.. لكنه أهمل اللحم، والعظم.

أذكر يوم جاء (القائد) إلى الشرق في أول تفقد منتصر، بعد أن أكل وجبة البلاد الحرة، ومسح على فمه.. كنا قطيعاً من الابتدائيين.. يهش بعصا راع تربوي، أخرجونا في الحر والجوع، والفوضى، وفقدان الأحذية، والبكاء، لنقول يحيا القائد.. وفوجئنا بآبائنا.. قطيعاً أكبر، يهش براع أشد.. اسمه لقمة العيش.. يهتفون.. يحيا القائد. وحين عدنا إلى بيوتنا، استقبلتنا زغاريد أمهاتنا وهي تهتف.. يحيا القائد.

- 8 -

كان السوق الكبير كبيراً إلى حد ما، قسمته العنصرية المرافقة لأسواق المدن عادة، إلى عربي وإفرنجي، ليست عنصرية الناس ولكن عنصرية البضائع، حيث اختص العربي ببضائع الاستهلاك، من زيت وصابون، ودقيق، وسكر، ومستلزمات السمكرة والسباكة، والإسمنت، وحديد البناء، وانتشرت فيه المقاهي، والأفران، والمطاعم. واختص الإفرنجي بالأجهزة، والملبوسات، والأحذية، وربما مكتبات متأنقة تجرب حظها في الكسب. وكانت محلات الخياطة، وحلاقة الشعر، لا تخضع لتلك العنصرية، كانت تسكن العربي، وتسكن الإفرنجي، على حد سواء. كانت بعض الدكاكين نجوما يقصدها المشترون لتوقع على أجسادهم أو أرجلهم أو حتى بطونهم، وبعضها مغمورة، يتجاوزها الشراء دون أن يلقي نظرة. ولعل (الوردة البيضاء)، ومخازن (منى) و (سلوى بوتيك)، وأخريات كن من هؤلاء النجوم الموقعة كل بريشة سلعته التي يبيعها. كانت (الجرورة) هي النمط الشرائي السائد في تلك الأيام.. وتعني الشراء المؤجل، حيث تدون السلع المشتراة في

دفتر صارم وقوي الذاكرة لا ينسى زبونا أبداً ولا يتسرب من سطوره قرش. كانت المدينة كلها (تجر)، تجر من تلك النجوم، ومن دكاكين الأحياء الفقيرة، كنا (نجر) من الوردة البيضاء، نجر تموين الشهر كله.. حتى إذا انقضى ذلك الشهر، فتح الدفتر الصارم ذاكرته وعرّى سطوره، ونادانا.. وكان بعض (الجارين) يدخلون في عراك مالي شرس مع الدفتر، يغالطونه في سلع استهلكوها، وظهرت فوائدها في أجسادهم وسجنتهم، ويصلون إلى حد نعته باللص، والمحتال والعديم الذمة فلا يلتفت، وإذا التفت فإنما ليدون وجوههم، ويمحوها من ذاكرته بعد ذلك. كان (سالم) وإخوته هم سادة الوردة البيضاء، زرعوها في السوق زهرة ذات عطر ورحيق، كانت مكدسة بالبضائع.. تأتيها من منابت بعيدة على ظهور السفن وتجارة البحارة، ولعلهم ساهموا في الرقي بذوق الساحل مبكراً.. جاءوا بطحينة اللوز، والمايونيز، والجبن المضفر، ومعلبات حدائق (كاليفورنيا)، وحتى برقائق الذرة (كورن فيلكس)، قبل أن تشمها المدن الأخرى بسنوات. كانوا من دماء الأتراك التي بقيت في الوطن.. سودنتهم البيئة، وحملوا المواطنة عادية.. حتى لتظنهم عاديين بالرغم من بذّاتهم الرصينة، وأربطة أعناقهم التي كانت أناقة نادرة في ذلك الزمان.

الآن ذبلت الوردة البيضاء قليلاً.. فارقتها (الشياكة) التركية، وآلت إلى أحد مواطنينا الشماليين، توزع الرحيق بمشقة، وبلا (جرورة) وتبزغ في جسد سيدها الأناقة المحلية، بأثوابها، وعمائمها وأحذيتها التقليدية.

وكان سوق الدلالة القابع بين هذا وذاك، من نوافذ المدينة التي

لا يمكن إغلاقها في الذاكرة أبداً، تذكرني به ساعة (السيكو) التي اقتنيتها من بيعه منذ ثلاثين عاماً وظلت تزودني بالوقت وأناقة المعصم حتى عهد قريب. دلالة العطبراوي. . دلالة البشرى، دلالة فتاح. . وكان (حمدان أبو دقن)هو أشهر الدلالين، وأغناهم فكاهة، كان قديما في السن والصنعة، (تعايشي) من كردفان لا يجمعه بخليفة المهدي سوى الجذع القبلي الموحد، وأحسب أنه ولد في الساحل لأن رطانة العرب الساحليين كانت سهلة الخروج من فمه. أيضاً كانت أزياؤهم تلائم بنيانه، وبنهم المر لا يلسع لسانه لسعته لألسنة الآخرين. كان يبيع سلعاً مستعملة، آلاف السلع بدءا من الإبرة وحتى الشاحنات. . كانت تبهرنا طريقته في اللغو، وسرد تواريخ السلع، وأماكن صناعتها. وعندما اشتريت منه ساعتي (السيكو) بمائة وخمسين قرشا وقلت له. . هل هي (ووتر بروف)؟ قال نعم. . ومن أهالي (أبورووف). . مشيرا إلى ذلك الحي الأمدرماني الشهير بفكاهة. وكعادة أي منغرس قديم في السوق، كان حمدان سريع الشم. . يفرق بين المشتري والمتسكع، حامل المال وحامل الكلام الفارغ، وعندما رفض الرد على سائل كان ينوي شراء سلعة من عنده، سألته. . لماذا لا تريد أن تبيع له؟

قال وهو يجهز سفة عاتية من السعوط تذكر بسفات (النور عنقرة) التاريخية. . - رددت عليه عندما سألني عن سعرها منذ ثمانين عاماً.

وكان أغرب بيع له، ذلك الذي كانت تشتريه النساء المتجولات في السوق باحثات عن الرخيص والجيد، كان يبيع للجميلات ساعة مقابل ابتسامة، وحلقا مقابل ضحكة، وخزانة للعدة مقابل عبث

يخرج من عمره السبعيني ناشزا.

سوق الدلالة حسدته الأموال المستثمرة على موقعه المميز، وسنانيره التي تصطاد من جهات أربع. اشترى المكان رجل أعمال ما لبث أن طرد الدلالة، وبائعيها، ومشتريها، ومتسكعي نكهتها، وأقام برجا مغرورا رافعا لـ (مناخيره)، فأقامت الدلالة في مكان بعيد ومنعزل. يطرقه قلّة من الناس وتحت ضغط الضرورة. كنت أرى حمدان أبودقن، بلا بصر جالساً في ذكريات السوق الكبير، أسأله عن أيامه الخوالي، فيسمع بمشقة ويرد بمشقة. ينادي عصاه لينهض، فيعيده العمر إلى جلسة الذكريات. وكما يقال فإن سوق الدلالة كان هو السابق ولحقت به أسواق أخرى، كسوق البطيخ، والإسكافية، كلها ترصدها السل المستثمر، وانزوت بعيداً.

كذلك كانت ثلاجة (الأعسر) إحدى المزارات الهامة خاصة في صيف المدينة التعس، كانت محلا لبيع الثلج، يزداد شهرة كلما ازداد الصيف حقداً.. وشح ترف الكهرباء، وثرثر العرق على الجلد، وكان (الأعسر) حضرمياً منفلت المزاج، يعجبه التجمهر العطشان، حتى يمارس انفلات مزاجه بحرية. وكان أكثر ما يشوشره، تعلق الصبية بطاولة البيع، أو تفتت لوح من الثلج وهو يخضع لتكسير الطلب. أو انحشار ورقة مالية مهترئة في وسط عملته التي يحرص على استلافها نظيفة. كنا نصيح.. يا عم أعسر.. فيصرخ.. يا عيال الكلب.. ويقول الكبار.. يا أعسر.. فيلتفت بهدوء.. وكانت في بعض الأحيان تركبه جنية غريبة، فيقول للجميع.. ليس عندي ثلج اليوم.. إذهبوا، فيذهبون عطاشى والثلج يتبخر أمام أعينهم.

كنت ولا زلت أتساءل.. من أين يأتي بكل هذا الثلج؟.. من أين يأتي به؟ وكيف قدر له أن يروي عطش سبعين ألف مواطن، وهو بتلك النحافة، وذلك المزاج المنفلت، وتلك العينين المريضتين خلف زجاج كقاع الكوب؟.. لقد حاولت إحدى الجهات الشعبية منافسته، جاءت بمعدات، وثلاجات، كلها بقروش، خيرية، ابتدأت تثلج الصيف بعيداً عن نرفزته، لكن ذلك لم يستمر أبداً.. انطفأ سريعاً مثلما اشتعل.

لعل درب السوق يقودني إلى استديو (العروسة)، أول محل للتصوير تدخله قدماي، لتقفان في ربكة أمام مصور وكاميرا، ولتخرج إلى العالم تلك الصورة المحزنة التي تمثلني، ولداً بقميص أزرق مخطط، وسروال من صوف خشن.. أرسلته أمه لشراء زيت، فدخل استديو، وتصور حاملاً دهشة المغامرة في العين، وإناء الزيت في اليد.. لقد أضحكت تلك الصورة عائلتي كلها، وما يزيد على ثمانين قريب شاهدوها مبروزة في أكثر صالات البيت نهبا بعيون الزائرين. ولولا أن (سليمان) المصور لونها بألوانه الطبيعية، وملأ فراغات البله بأزرق عنيف، وإناء الزيت بأصفر غامق، لكانت إحدى صور أفريقيا طالبة المساعدات بشدة.

يواجه استديو العروسة على الجانب الآخر من الطريق معلم آخر ولد شاباً، وانتهى شاباً.. إنه نافذة بيع تذاكر اليانصيب.. فقد دخلت لغة اليانصيب فجأة إلى المدينة، وأصبحت على مدى الأيام هي اللغة الأم من بين جميع لغات الحياة اليومية. وتحول ذلك الكشك الأخضر من كشك ضعيف لنسخ أشرطة الكاسيت، إلى نافذة عنيفة لبعثرة جسد اليانصيب وإغرائه على كل المدينة بلا

حصر.. كان الهياج على بابه يومياً، الحسرة والغضب، والحظوظ المحظوظة أو المتكسرة.. كنا من رواد تلك النافذة، نزاحم بمصروف هزيل ونخسره.. نقتدي بعدد من الساحليين ربحوا بيوتا وعربات، وشهرة. وأصبحوا ملء الشم واللمس، والنظر. كان (طه) أحد هؤلاء.. اشتهاه اليانصيب مرة، وحوله من (طه الماها) الذي كان حارسا في الميناء، يحرس تعاسته، وخيبة رجاه، إلى (طه التلب) صاحب الباصات، والكافيتريا، والمهر، والمؤخر، وعريس إحدى بنات الأسر.. كانت صحافة الساحل المحلية تطارده، وصحافة العاصمة، تتكبد المشاق كي تحاوره، والميناء الذي كان يحرس تعاسته، يكون لجنة لحصر البضائع، ويضمه إلى عضويتها.. يا بختك يا طه.. كان (اليانصيبيون) يرددون، وينغرسون بريالتهم في زحام الحظ.. يا بخت عروس طه، كن البنات يحقدن، وهن يتطلعن إلى مرايا خشنة تعزي وجوههن. يا بخت عيال طه.. كنا نردد، ونحن ننغرس في الزحام أيضاً. وأذكر أنني فزت مرة في السحب الكبير. كان فوزاً حامضاً يسد النفس.. فقد كانت الجائزة الثالثة التي فاز بها سبعة ملايين مواطن في جميع أنحاء الوطن، وجاء نصيب الفرد أحد عشر قرشا فقط لا غير.

يقودني الدرب أيضاً إلى (رامونا) ذلك المقهى الذي كانت تحلية المدينة الكلاسيكية من عمل يده. كان مقهى فسيحاً، هادئاً. يتربع وسط سوق الإفرنج واضعا ساقاً على ساق.. لعله إغريقي، أو طلياني، لأن رائحة الخواجات كانت تنبعث من الاسم والهيئة، والأيدي العاملة، بالرغم من أن خواجاته كانوا عربيي اللسان بجدارة. كان والدي يصحبنا إلى ذلك المقهى، يكرمنا بقطع

(الباسطة) والكنافة، التي كانت ذات طعم نادر، وعندما أضيفت إلى تحليته فطائر (البغاشة) الغارقة في الجبن والعسل، ابتهجنا كثيراً، كأن شريانا جديداً أضيف إلى القلب.. وبعد عدة سنوات وأثناء تواجدي في المدينة بعد غياب طويل، تذكرت تحلية (رامونا)، وانطلقت، فوجدتني أمام مقهى بلدي من اتساخ لافتته حتى نداء جرسوناته.. لم يكن ثمة رامونا، ولا رائحة لإغريق أو طليان. كانت الكنافة حطبا، والبغاشة مجرد اسم تجاري.. بلا جسد.

فهمي قرياقوس هو خياط العائلة، أو الترزي بلغة التخاطب اليومية.. ترزي الأناقة كما كانت تقول اللافتة المعلقة على دكانه في وسط سوق (الإفرنج). كان يونانيًّاً من سالونيك، لصق بالساحل منذ كان صبيا قدم في سفينة شحن. كان صمغ الخير في تلك الأيام جاذبا حتى لأولئك الأوروبيين.. بالرغم من تقدم بلادهم، وأشواط الرقي التي قطعوها.. ولابد أن بقاءهم في تلك البلاد الحارة والرطبة، لم يكن يشعرهم بأي مغص أو صداع، لأننا كنا نراهم ضاحكين ومبتسمين، ومنسجمين حتى في أكل (الكسرة) و (الملاح). وسلام الكتف للكتف. و التمتمة بالفاتحة في العزاءات. كان فهمي من أولئك، عجوز وممتلئ، وضاحك ويحمل في عروقه تنشئة مواطن. كان جهده الخياطي موجها للطبقة الوسطى، يزحمونه في الأعياد والمناسبات، وبدء المدارس، ويتركونه في أيام أخرى عاطلا يضع ساقا على ساق، وقهوة على ملل، وأذنا على أغنية ملحمية (لمحمد الأمين). من المؤكد أنه لم يسمع بدانتي، وكازِانتاكيس، ولا تهمه الإصلاحات الاقتصادية التي كان يجريها الاشتراكيون في ثدي بلاده الأم، وكانت زوجته التي لم

تنجب له، تعشق الثياب الوطنية وعطور الحريم المخلوطة منزليا، كانت تتزيا بموضات (أبو قجيجة)، و (رسالة لندن)، و (جكسا في خط ستة). . فتبدو كلوحة وطنية رسمت بريشة مستشرق. كان فهمي صديقا لوالدي، يتزاوران زيارات الأصدقاء، يحتسيان شاي المغرب، وذكريات الأيام القديمة أيام كانت الرواتب جنيهات قليلة، وتفصيل البدل والقمصان بعدة قروش فقط. فجأة جاءت الأزياء (الريدي ميد) إلى البلاد، جاءت بكثافة، ورشاقة لدرجة أن عواجيز من أمثال فهمي لهثوا وما لحقوا بتصاميمها، قال فهمي وهو يدق آخر مسمار في كفاحه الذي كافح نصف قرن. .

-الآن أعود إلى سالونيك.

وعاد. وظللنا نبحث لأناقتنا عن كفاءة بديلة وصديقة، يهضمها صباح العيد وبدء الدراسة، ومناسبات الأعراس، وكان الأمر صعبا.

يقول المثل. . أو لعله غضب الأمهات في أحيان كثيرة. . (أدك سكرة يني. . الفي تربته يغني).

كنا نسمع ذلك الغضب، حين تضبطنا الأمهات نعبث بإناء السكر. . المسمى (البستلة)، نسفه بتلذذ غير عابثين بسعر الرطل الذي كان في ذلك الوقت سبعة قروش سمينة، ربما أسمن من سبعة آلاف من الجنيهات في هذه الأيام. . أخرج. .

-أدك سكرة يني.

تذكرت هذا وأنا أمرر هرشي للسوق بتلك الحانة التي كانت تجلس في فجور في واحدة من أرقى نواصي المدينة. . تلك التي

تواجه الحديقة الكبيرة.. كانت مقاعدها من (تيك) و (مهوقني) ومفارشها من قماش وردي بحواف مذهبة.. وكان روادها أنيقين للغاية، يرتدون مهناً أنيقة.. وأزياء فخمة. إنها حانة يني.. ذلك الإغريقي الذي فجر بهجرته، لم يوظفها في قماش، أو حلاقة، أو بيع مستور، ووظفها في بيع غيبوبة المزاج.. كنا نراه كثيراً.. يتسوق أو يمرض، أو يزاحم في زحام السينما.. نستغرب من كل تلك التحيات والسلامات التي يدلقها الطريق بسخاء وتجرجر ابتسامته إلى فم عميق كبئر، وتذهلنا بطنه التي رباها أبشع تربية، فسابقته المشي والتنفس.. نقول هذا صاحب السكرة المشهورة.. ونضحك.. وفي أحد الأيام تعقبه أحد رفاقنا، ربما كان (جني) صانع المآزق الغريب.. لم يكن يريد شيئاً باهظاً.. فقط سؤالاً كان يؤرقنا جميعاً..

- هل تعرف الغناء يا عم (يني).

تلون الوجه المهاجر، بلون غسق خفيف.. وبدت حنجرة غائرة في الجسد، تبرز شيئاً.. فشيئاً..

- نعم.. بالتأكيد.. المامبو السوداني.. مامبو.. المامبو اليوناني.. مامبو.. المامبو الطلياني.. مامبو..

وانشغلت البطن العاتية في غناء أهوج لم تسمعه آذاننا أبداً من قبل. ولو خطر لأي فرقة غنائية أن تؤديه لرجمت.. كان صاحب الحانة يغني بمغص، ويشخر بمغص أيضاً، ولعل متعته كانت تشبه المغص، لأننا قارناه برواد الباب الهستيري المولول، فبدا لنا واحداً منهم.. ارتعد الطريق، وفتحت أبواب المنازل، وبدت نساء عاريات الرأس يدغدغن ضحكا.. وفاجر الحانة يغني.. أجهز

على (المامبو) بكل جنسياته، وانتقل إلى (حقيبة الفن).. بعثرها في ذلك المغص، وذلك الشخير.

.. إنه صاحب السكرة المشهورة.. إنه هو.. لكنه لم يمت بعد.. حتى يغني في قبره.. فقط قام بأداء بروفة رائعة.

قلنا لطفولتنا ذلك وانطلقنا لنقص على غضب أمهاتنا تلك الفرصة الفريدة التي لمتنا بصاحب نهراتهن الغاضبة.

يني لم يعش في الساحل حتى يغني في التربة الوطنية.. تحت أشجار المسكيت المالحة، انتهت مهمته بانتهاء مهمة الخمر في البلاد.. ذبحت قوارير بيعه أسوة ببقية القوارير في جميع أنحاء الوطن، فك لزقته الساحلية على عجل وذهب ليفجر في مكان آخر.. لعله وطنه الأم.

ما دامت توجد أجساد فلا بد من أرجل، وما دامت توجد أرجل، فلا بد من أحذية.. وكان (مدني) الحضرمي، هو الأشهر بين باعة الأحذية القليلين في السوق، كان بيعه يلغي بيعهم، أسعاره تجندل أسعارهم، وصداقته للمدينة من حي (الأغاريق) حتى حي (جابر) تعطي تجارته نكهة سيجارة (البحاري)، يدخنها الغني والفقير. كانت حفاوة العيد تبدأ من عنده، (شيلة) العرس تبدأ من عنده أيضاً، وموضات إيطاليا تخب إلى محله قبل أن تبدأ تسكعها في المحلات الأخرى.. كنا من أسرة اشتهرت بكبر الأقدام وفظاظتها، وإنهاكها للأحذية بمرارة.. ندوخ في البحث عشرين دوخة قبل أن نعثر على حذاء يتحمل الإنهاك، والفظاظة، كان مدني يخفض تلك الدوخات بجدارة، يخفضها إلى عشر دقائق انتظار فقط، ريثما يصعد عامله إلى سقف علوي، ويأتي بالطلب.

الآن أفتقدك يا مدني بشدة. . أفتقدك حتى بعد أن مت، وماتت تجارتك، واقتسم الوارثون العطر، لكنهم بخروه. . كبرت القدم أكثر، والمعاناة أكثر وتضاعف الدوخان. . سقط في بلاد كثيرة، ولا حذاء أنيق.

الآن أجلس في أحد المقاهي الشعبية، أطالع لاعبي (الدومينو) و(النرد) و(الكوتشينة) مهووسين وغارقين ومتشاجرين في سحر كاذب، يستنزف الوقت، ويعطي للتسلية أبعاد الخبل. . أطلب حلبة باللبن. . أتجرعها على مهل حتى يجيء، أود أن أصطاده. . إنه يونس غراب. . ماسح الأحذية الشهير. . الذي مسح في أربعين عاماً أحذية الإنس والجن في المدينة لدرجة أن يده اليمنى، تحورت عضلاتها، واتخذت وضع الاستعداد الماسح بصفة مستديمة. . ليست بيني وبينه خصومة. . فلم يكن حذائي الطفل في ذلك الوقت مؤهلا للتردد على أماكن مسحه. . فقط لأتذكر ذلك الوغد الذي كان يذكر في حصص التاريخ، والجغرافيا، والحساب، عشرات المرات في اليوم. . كان المعلمون يقولون في كل صغيرة وكبيرة. . . لن تفلحوا أبداً. . ستكونون مثل يونس غراب. . حتى ناظر المدرسة الذي كنا نظنه لا يعرف عدد أبنائه، كان يردد مثلهم. . لن تفلحوا مثل يونس غراب. . كان الفلاح في نظر المجتمع قاسياً، وعنصرياً. . يحتفي بمهن، ويركل أخرى. . وأقول الآن. . ليتنا كنا مثله. . . بسيط يعاقر صنعة بسيطة. . ورجل عادي يعيش عادياً. . على العكس كانت يده شهيرة، وكان صوته لا يسكت عن التمتمة. . اللهم أدمها نعمة.

كنت أستغرب من اسمه كثيراً، أتخيله مولودا هائجا مشتت

الأرجل واليدين يمسك ويرفس، ويمص الحليب بنهم. . فألصق به ذلك الاسم. . إنه (حركة) الإسكافي الذي كان جراحا بائسا لثلث أحذية المدينة. . ومشاركاً في جراحات ثلثيها. كان مستشفاه متنقلا، يحط في أي صالة وفي أي ركن تجود به عنصرية السوق. . و كانت مواسم تواجده تلك المواسم التي تكثر فيها علل الأحذية، كمواسم الأعياد. . كذلك ساعات الذروة حين ينخلع صندل وهو يشتم أو يتسلق إلى الباص. . كان حاضراً، بخبرته، وخيوطه. . وشاربه الذي يلحس من الأكل أكثر مما يلحس اللسان. . كانوا يقولون. . خذ حذاء من (مدني)، لمعه عند (يونس)، وعالجه عند (حركة) إن مرض. .

أود أن أرفع ذكرياتي عن السوق لأحك بها هرشاً في أماكن أخرى، لكن عراكا نشب فجأة ناداني، كان بين (جانتي) الإليكتروني، ومتسول عادي، شده الزحام المبرر عند (جانتي)، فجاء يمد يد التسول، يحشرها بين البيع والشراء والنقود والآلة الحاسبة.

نعم. . لقد كان الزحام عند جانتي مبرراً. . ومبرراً بشدة، فقد كان يبهر المدينة في كل وقت، يبهرها بساعاته المبرمجة، وأقلامه الناطقة، وأحواض سمكه العجيبة، وأجهزة (الترانزيستور) التي يسمعها الطرشان أسوة بالعاديين. وحين ظهر الإرسال التلفزيوني في المدينة في أواخر السبعينيات، وتبعثر الناس لشراء أجهزة، كان التجار نائمين. . استيقظوا بتثاؤب. . يخاطبون منابع تلك الأجهزة، لكن (جانتي) لم يكن نائماً، مد نشاطه المستيقظ. . فتح مخزنا ملحقا بمحله، وأخرج بضاعة الشهوة الجديدة نظيفة وغالية وهو

يبتسم. كان من مهاجري (البنيان) المكارين، ولعله أشدهم مكراً، لأن تجارته لم تمرض ولم تمت حتى الآن. ظلت ترضع من تكنولوجيا اليابان، وهونج كونج، وواق الواق حتى بعد أن مات وأمسك أبناؤه بخيوط المكر. كان الشراء من عنده ناتجاً عن الإبهار، وليس عن ضرورة، وكانت الفرجة في محله تعادل تسلية كاملة في مدينة للملاهي.

لماذا يلح علي (سمارة) العجلاتي أن أكتبه في هذه السيرة؟.. لماذا ينظر إلي بعيني أبناء (جبل أم علي)، ويحدثني بلسانهم، وهو متربع في مملكته الخاصة، مملكة العجلات، والإطارات والرقع. تلك التي تقع في عمق السوق، متكبرة ومتعجرفة..

لن أكتبك يا سمارة، لن أكتبك أبداً، كانت عجلاتك المؤجرة لطفولتنا وصبانا بعد ذلك، مكسرة، وبائسة، وعالية الإيجار، كانت الساعة بعشرة قروش، وكانت العشرة قروش عند (راجا) الهندي، تكفينا حلوى لمدة شهر.

أيضاً أرى رأس (زينب) بائعة الكسرة الشمالية يطل من خلف سوق اللحم، والخضار.. أراها تخب إلى ندبات المسيرة خب بائعة ضائعة، أنفقت أربعين عاماً في ذلك البيع، ولم تطل إلى أكثر من (زينب) بائعة الكسرة المرة.

لن تدخلي في العطر يا زينب.. لن تدخلي أبداً.. كان عجينك مثل (القرض) يهيج المعدة.. وعصبية القولون، ويترك جفوة دائمة بين الحلق والأحشاء، يكره الحلق الأحشاء لأنها لا تهضم، وتكره الأحشاء الحلق لأنه جسر لا مبال.. يمر عليه كل شيء.

كان اللحم، ولا يزال هو سيد موائد الوطن، يتعرف عليه التذوق حتى لو دس في وسط عشرين صنف آخر. . وتصادقه الأسنان برغم إيذائه الدائم لها، وجرجرتها إلى عيادات الخلع، والحشوة، والبنج المؤثر. . حتى الدم الذي يتضرر من دهنه، و(كوليستروله)، وجلطاته المستقبلية، لا ينعتق من ذلك العشق. . نحن لا نعرف الغذاء المتوازن. . ولا نحس برهافة الخضروات. . ونعتبر مائدة بلا لحم كأن لم تكن. كان للساحل ذلك الطبع. . وكانت دكاكين الجزارة من البؤر التي تجمع الناس بكثافة. . أريد أن أتحدث عن أولئك (الجزازير) كما تسميهم المحلية. . لم يكونوا مجرد باعة للحم يذبحون. . ويسلخون. . ويتفرقون عندما ينتهي البيع. . كانوا قبيلة بنفس الوجه، وبنفس القياس. . رضعت ذلك الشبق المهني. . وتوزعت في السوق. . نعم لقد كان (الجزازير) قبيلة تعرف بذلك الاسم. . حتى الذين لا يعملون منهم في تجارة اللحم كانوا (جزازيرا). . النساء (جزازير)، والأطفال في بطون أمهاتهم (جزازير). . أستحضر تلك الرصة المتقنة لذلك السوق المارد. . أستحضر الوجه الذي يتكرر في كل خلية فيها. . إنه وجه تلك القبيلة. كان (الأزهري) صديقا لتذوقنا في ذلك السوق. . كان مطابقا لمواصفات القبيلة. . مثل أبيه وأمه، وأخواته. . وأعمامه. . كنا نخاطبه كأننا نخاطب هؤلاء، ونشتري من عنده كأننا نشتري من الرصة كلها. . وعندما يفرغ اللحم من عنده، نتلفت. . فنرى الرصة كلها فارغة. لقد خطر لي أن أسأله في أحيان كثيرة. . كيف توصلتم إلى تلك (الهارموني) التي ميزتكم في الساحل. . وجعلتكم (صينا) أخرى، لكنها (صين) بهياكل ماردة؟. . لكنني لم أسأله.

- 9 -

كل الطرق تؤدي إلى روما..

وكل الطرق تؤدي إلى البخر في المدينة الساحلية.

كان شاطئ النزهة مديداً.. مفروشا بالأندية، وأحواض السباحة، والمارة، وباعة الترمس، والكبكبيق، وبعدد من (الحواءات) كن يأتينه خصيصا من حي التكارنة.. يغازلنه حاملات قفاف البيع على رؤوسهن، وعيالهن الصغار في ربطة متقنة على الظهر، كانت تنام على كتفه الغربي بيوت عصرية الطراز، لا تشبه بيوت (العظمة) لكنها تنافسها الوسامة بملامح أخرى.. ملامح شقراء.. إنها بيوت (الخواجات).. ترقد في ذلك الخيار المرفه بعيداً عن هرج الوسط والأطراف.. لا ملمح لباص مزدحم مدخن، لا ضجة لبائع خبز أو رغيف، لا تسول يتحدث الإفرنجي ليطرق على باب.. لا وجع للرأس، ولا تشنج للدورة الدموية. كان رجال تلك البيوت خبراء لا يعرف أحد ماذا (يخبرون) وكانت نساؤها نساء أخريات، نلمحهن في زي التحضر الشفاف يداعبن طفلاً أو كلبا، أو يسحبن قوارب من المطاط يلقينها في جسد

البحر، ويقفزن فيها. . إنها فقرة من فقرات النزهة البربرية، تأكل النظرات من تلك الأجساد المحمصة، وتبتسم ابتسامات غارقة في الريالة. وحين تضبطهم عيون البحر، يختبئون خلف غضب متصنع، وغيرة على عادات الشرق. . كتبت صحف في العاصمة. . نوادِ للعراة على ساحل البحر. . نوادِ للعراة في بيئة محافظة. . وعندما نشرت صورا لعراة يسترهم الحبر الطباعي لم تكن صورها شقراء، لكنها كانت سمراء لأولئك الفقيرات من أحياء بعيدة، واللائي كن يأتين ليطعمن بالبحر أسوة بالناس. . اخترعن ركنا بعيداً حولنه إلى حوض للسباحة يلائم طعمهن. وكان نادي الرماية القابض على مركز الشاطئ، هو الأوسع شهرة بين متنزهي البحر، ولد في زمان بعيد، واحتفظ بشبابه مجدداً. . لم نكن نعرف سر تسميته، فلم نر أحداً يرمي بداخله. . وفي الأوقات التي تسلقنا فيها سوره العريض كان خاليا إلا من عجائز يضحكون بمشقة وينغرسون في ألعاب الورق. كان يبيع سندوتشات الكبدة والكلاوي، والخيار المخلل، هي أيضاً ذات طعم، وذات نكهة. وكان الشاطئ يجود في بعض الأماكن بأشرطة من اليابسة تسمى السقالات، كانت تمتد في البحر بعيداً حاملة تطلع الناس إلى الميناء المواجه، حيث السفن منحية على الشط تستفرغ واردات الوطن، أو متكئة على البحر تأكل صادراته. . كنا نعد السفن. . نستعين بجغرافيا ابتدائية لنفك رموز أعلامها المرفرفة في زهو، وننجو من معضلة قراءة الاسم الذي غالباً ما يكتب بلغة مبهمة، بمتنزهين كبار يصادفون نزهتنا على الشاطئ. وعندما كبرنا قليلاً كان الوطن قد امتلك أسطوله الخاص من سفن خرافية، خضراء،

ونظيفة، وتحمل ألوان العلم في جلال ونشرها في حركة السفر والعودة، كنا نبتهج حين نراها.. نكيد بها بقية السفن.. نقول هاهي الخرطوم، هاهي نيالا.. هاهي القضارف. وكان قباطنة تلك السفن مشاهير في الساحل، وسيمين وصارمين، ولهم قسط وافر في دردشة الساحليين. وكان (قاسم) الذي قيل بأنه أول وطني قاد سفينة في البحر، قمرا تهندسه الروايات، تروي عن حبه للبحر، وغنائه للبحر، وموته الذي حدث أيضاً في عرض البحر بعد ذلك. كان الميناء يواجه النزهة ويسحرها.. حركة من الغدو والرواح، والشحن والتفريغ، وتخليص البضائع، والسرقة، والتكدس، والمشاغبات. وكان أبناء قبائل(البجة) المحلية هم ضرع تلك الحركة يسقونها بلا توقف. وهم مضاعفات تلك الحركة أيضاً، تضربهم الشمس، وتذوبهم الرطوبة، وتنكسر رؤوسهم بشحنات تطيش أحياناً من (كرينات الشحن).. كانوا يعملون بتلذذ.. يغنون بهمجية راطنة ويشاغبون سكر البحارة بسكر الضحك. لقد جثم الميناء على أرضهم مستعمرا شبقاً.. وجدهم سمرا، وأميين، وذوي صبر واشتهاء، رسخ من سمرتهم وأميتهم أكثر، احتال على صبرهم، وأمدهم بملاليم الاشتهاء، يبصقون بها في حي (العرب) القبائلي مبتهجين. كانت أزياؤهم رطانية، أسماؤهم رطانية، أطفالهم يكبرون بجلد البيئة، وتسريحة (القمبور)، وحريمهم يرتدين(الفرك) الملونة، ويتعطرن من عطر (الشاكوين) الذي كان لخبطة محلية تصنع في البيوت.. وتذوى في البيوت. كانت (الشلوخ) رفيقة لوجوههم.. الخناجر تلازم تنقلهم، وصنادل المشي المصنوعة من إطارات العربات، تستر تفاصيل أرجلهم

المشققة. وفي إحدى السنوات فارت السلطة على السلاح الأبيض واعتقلت صناعته بعد أن جرح سلام الساحل كثيراً، وبدا فتوة يمد لسان (الفتونة) في وجه القانون، فكنت ترى (البيجاوي) يمشي في المدينة بلا خنجر، فكأنه يمشي عاريا. الآن ما عادت للبجة تلك التعاسة الطبقية، تمكن منهم التعليم، وأصبحت مدارس الأساس تزاحمهم في (حي العرب).. خرج منهم أطباء، ومحامون، ومعلمون، ومغنون، ووزراء، ومناديات بتحرر المرأة. تعدلت أسماء أجيالهم الجديدة كثيراً، وأصبحت أسماء مثل (هندب)، (أماتيت)، و (برونا)، مجرد أسماء تذكارية، يرتديها أجداد وآباء أجداد حتى يختفون..

أيضاً كان أبناء قبائل (البني عامر) الموغلة في المحلية، يشاركون في إرضاع الميناء، لكنه كان إرضاعاً كسولاً، ومتذمراً، كان هؤلاء في الأصل حدوديين يقيمون في الشرك الثقافي بين الوطن وإريتريا.. كانوا محاطين بصحراء يابسة، وأسوار من الفقر وتشرزم حتى في الأكل والشرب والرطانة، ولابد أن فرقا منهم هاجرت إلى الساحل سعيا وراء رائحة الميناء الوليد. وفي فترة من الفترات وقبل أن يمسك التعليم بأجيالهم الجديدة، ويصمغهم تلاميذ وموظفين.. عمموا رجالهم حراسا، وسعاة، ونوادل في المطاعم، وربما ممرضين قليلين، ونساءهم خدما في بيوت الحضر. كان أكثر ما يميزهم ذلك التآخي الفذ، والهدوء، والسير بعيداً عن سكك المشاكل، وطوال إقامتنا في الساحل لم نسمع بقبائلي من البني عامر، اقتنى سيفا أو خنجرا، أو حتى عصا. وحين عملت في منابت تلك القبيلة بعد ذلك، راعني أن كثيراً من

مواطنيها تشرسوا، وتآكل كثير من طبعهم القديم. كانت قبائل الشمال دائماً موجودة.. موجودة بدناقلتها، وشايقييها، وجعلييها، وعدد آخر من القبائل الصغيرة، إنهم مستعمرو الوطن.. (جلابة الغرب والجنوب الذين يحصدون الثروة، ويمسكون بقلوب البنات وأغنياتهن العاطفية.. كانوا في الشرق يحصدون.

-احذروا (التوينة)..

-التوينة ابتلعت مواطناً..

هكذا صرخ الساحل، وهو يلقب سمكة مهولة من أسماك القرش، ظهرت في تلك الأيام وامتلك ظهورها سطوة الأسطورة والمبالغة. كانت أسماك القرش لا تعرف بحرنا المحلي أبداً، ولم نسمع عن تغذيها بدم مواطن إلا في تلك السنة. ويبدو أن تلك المباغتة جعلت الناس يهضمون ذلك اللقب الذي لم يأت من قاموس أو رطانة، دون أن يسألوا عن أصله. كانت الأحياء تصب في الشاطئ باحثة ومنقبة، والصيادون ريضوا شبكهم، وفتلوا عضلاتها حتى إذا ما صادفت التوينة، قاتلتها قتال ند لند. وفي اليوم الذي اصطيدت فيه، جيء بها ذليلة على عربتين مسطحتين من عربات السكك الحديدية، عرضوها على الناس حتى ملوا، ثم اندثرت حكايتها بعد ذلك.

- 10 -

أتطفل الآن على مدرستنا الشرقية قليلاً، أتطفل بنفس تلمذتي المؤدبة، والخجولة، والحاصدة لهدايا المعلمين، من أقلام، وكراريس، وعلب للهندسة. .

لا أدري لماذا هي الشرقية؟

ولماذا الغربية. . هي الغربية؟ والجنوبية هي الجنوبية؟

تلك هي أسماء المدارس. . لم ترهق السلطة التربوية في ذلك الحين وقتها في البحث عن أسماء لصحابة، وشهداء، ومناضلين. . ورائدات في حقوق المرأة، ألبست المدارس أسماء جغرافية، وكفى. ووزعتها على الأحياء بنفس السحنة، والشغب، وإرهاق أعصاب المدرسين. كانت الشرقية قريبة من الوسط. ذلك القرب الذي يجعل أولياء الأمر يتواجدون بداخلها بسبب وبلا سبب، فقد ابتليت بالجوار العامر لمواقف الباصات، وإدارات الحكومة، وأسواق اللحمة والخضار. كنا نرى آباء متأنقين، وآباء معممين، آباء يحملون أكياسا يطل من داخلها الموز والعجور، وأكياسا تقرف الدرس برائحة السمك. وفي بعض الأحيان كانت أمهات مولولات

وسلطويات يأتين، يؤنبن اشد المدرسين شراسة أمام أعيننا، ولا ينطق. وكنا عندما نختنق بكثرة الأعباء، والاختبارات، نقول لأحد زملائنا، والذي اعتادت جدته على التخريف في المدرسة من حين لآخر. . احضر جدتك لتؤدب الأستاذ. كان يفرح بذلك، يذهب إلى البيت باكياً، وربما مزيفا بصفعة على الخد، وفي اليوم التالي يأتي برفقة الجدة التي كان لسانها المخرف مبراة تجرح الدرس والدارسين. كان المعلمون آباء وليسوا إخوانا كما هو الحال في هذه الأيام، كان المعلم يبعد عن تلميذه مسافة جليلة من العمر، تلك المسافة التي تمنحه ملكة النصح والتوعية، ورصف الطريق. حتى أسماء المعلمين كانت عصية على نطق الطفل، كأنها وضعت كذلك حتى لا ينطق بها. وكانت مصادفة المعلم في السوق أو الطريق في خارج وقت المدرسة، خيانة عظمى، ومعضلة لابد من تبريرها في الصباح الدراسي، وقد كان بعض المعلمين يملكون لغة خاصة في التربية، كانوا يراقبون دور السينما، ونواصي الطرق، ومقاهي النرد والشيشة، يبحثون عن جسد تلميذ في وسط شاغلي تلك الأماكن، حتى إذا وجدوه كان صباحه التالي عسيرا على الهضم. كان (عطا الفضيل) أحد هؤلاء المربين ذوي اللغة الخاصة، شمالي، ومشلخ، ويذكر الحضريين بفلاحة الأرض، وهش الطير، وقيادة الساقية. كان ينتشر في المساء ملثماً. . يطوف بمنابع الصعلكة في المدينة يحصد خيانة التلاميذ ويعود بها ذليلة في الصباح التالي. وكان من أشهر حصاده، أن تلميذاً أشعل له سيجارة من ولاعة مذهبة أمام السينما، دون أن يخطر بباله أنه يشعل سيجارة قد تفصله من المدرسة. وقد كان أحد التلاميذ مغرماً

بالغناء، كان يلاحق حفلات العرس بجنون، ينحشر بين المغنين وأصواتهم، ويمد صوته الصغير كلما سنحت فرصة بذلك، وفي أحد الأيام لاحق حفلا في أحد الأحياء البعيدة، قدموه كصوت واعد يتوقع منه الكثير، وفي اللحظة التي عرى فيها صوته وغرسه في تربة الحفل، اكتشف أنه كان يعريه ويغرسه في عرس المدرس، وكان ذلك آخر عهد له بالغناء، تلملم من جذوة الحفل بمشقة، وبدا في الصفوف الخلفية في المدرسة مؤدبا وخجولاً، بالرغم من أن المدرس العريس رقص في عري صوته كاستثناء فرح لم يتكرر بعد ذلك. أيضاً كان (موسى) معلما فوق العادة، متمكنا، وشديد الصرامة تحوطه بقعة هائلة من رعب التلاميذ، كان من إحدى قبائل المنطقة، تعلم، وأحب أن يعلم، وكانت رياضياته التي يدرسها تدخل إلى المخ غصبا بالحسنى أو بالعصا. كان الوحيد الذي يركب دراجة من معلمي المدرسة، كانت من ماركة (رالي) الإنجليزية، وقد دخلت تلك الدراجة إلى قاموس حياتنا اليومية، وسببت لنا بلبلة في الشوارع، كنا نتلفت بحذر، نظن كل دراجة (رالي)، وكل راكب دراجة موسى. ولا أستطيع أن أحصي تلك الصباحات التي تجمعنا فيها أمام المدرسة، نتسلق الطريق الذي تأتي به صرامة موسى، نتمنى ألا يجئ أبداً. وبعد عدة سنوات من تخطي المدرسة الابتدائية، التقيت بموسى، احتضنني وهو يبتسم بشوق، وعرفت وأنا أتأمله من عمر أكبر، وتجارب أنضج، وعينين اتسعتا حتى أكلتا حاضره وماضيه، أن تلك الصرامة القديمة إنما كانت صرامة معلمة، وليست صرامة لإهانة أحد. ولعلي أحاول أن استدرج مدرسا آخر إلى هذه السيرة، فيأتي راكضاً، إنه (الحرباء)

الذي ظلمته الألقاب التلاميذية، فرصعته بذلك الاسم دون سبب، سوى أنه كان ناضجاً، ويعامل النيئين بذلك النضج. وقد حاولت كثيراً أن أوفق بين ملامحه، ولقبه، فلم استطع. إنه صاحب الوجه الجامد، والدروس المعقدة، والحصة التي ننهيها بشرود أذهاننا قبل أن تنتهي، وهو أيضاً صاحب الشكوى الشهيرة التي قذفت بتلميذين ابتدائيين من نار التعليم إلى نار الشارع العام. قال رأيتهما بعيني يسرقان في أحد الباصات، كان دقيقاً في بلاغه، لدرجة أنه وصف الجنيهات المسروقة كأنها خرجت من جيبه، وقد قال (أحمد شموع) الذي كان أحد التلميذين السارقين، وتدرج في أخطاء الطريق حتى أصبح من أعمدة المدينة الرأسماليين، قال بعد عشرين عاماً من ذلك، وأثناء احتفال أقيم لتكريمه..

- أريد أن أشكر (الحرباء)، معلمي القديم، فلولاه لما كنت الآن بينكم.

فصفق الاحتفال بعنف دون أن يدري عن أي حرباء يتحدث المحتفى به. ولعلهم ظنوه معلما سوقيا أرشد ضيفهم إلى سكك التجارة وهو طفل.

كان (زيفة) أحد زملائنا التلاميذ الذين يدخلون الآن عطر الكتابة عن جدارة، فهو لا يزال يأكل من ذاكرة ذلك الحين كثيرا من المساحة، كنا نحترمه إلى أقصى حد، ذلك الاحترام المصبوغ بالخوف والذي يدلقه تلاميذ المقاعد الأمامية على تلاميذ المقاعد الخلفية.. فقد كان طويلا متجاوزا لأدبيات تلك الفترة بعدة سنوات، (يتمرجل) بشارب مراهق، وصوت خشن، ويقود دراجته الصينية الصنع دون أن يمسك بمقود، وفي الزيارات التعريفية التي

كنا نقوم بها لبعض مرافق المدينة، كالسجن، والمطافئ، وعنابر المستشفى، كان يقودنا كقطيع، كان يملك أنفا غريباً، يشم رائحة السندوتشات الراقية التي يحضرها البعض من بيوتهم، ويخبئونها في الحقائب مغلفة بالبلاستيك، كان يصطاد تلك الحقائب، يجردها من الرقي البيتي، ويترك أصحابها جائعين. أيضاً كانت نكاته التي يقذفها في الفصل من حين لآخر شديدة العري تمشي في وسط نكاتنا المحتشمة وتؤذيها. وأذكر أنه اختفى في أحد الأيام اختفاءً بطولياً. . ظل عالقا بأذهاننا، وأذهان صانعي التربية والتعليم لوقت طويل، فقد قيد أحد معلمي المدرسة الأشداء إلى مقعد، وقام بجلده بعصا من الخيزران حتى سمعت المدرسة شدة المعلم، وقد تحولت إلى بكاء.

زيفة الآن في العالم الأول، داخل مناظر السينما وخلاعة (الكاوبوي) التي كان يعشقها بجنون، لقد هاجر في وقت كانت الهجرة فيه حكرا على أمثاله، وأحسبه الآن في بدء الأربعينات مرتبطا بسخافات حي (هارلم)، يقود شاحنة محملة باستهلاك العالم الثالث، ويشارك في إيقاد (مونيكا جيت) بإمكانات متطورة.

- 11 -

كانت الشوارع برغم قيء البشر، ومخلفات ذلك القيء، نظيفة للغاية، تتعهدها الإدارة البلدية بحمامات يومية ومساجات تزيل عنها الأوساخ والتعب، وكانت أشجار النيم، والزهور المغروسة في وسطها عرائس نضرات يتزينّ كل يوم.. كانت للشوارع وظائفها الاجتماعية، تلك الوظائف التي تجعلها أكثر من شوارع مهروسة بالإسفلت، ومهانة بتسكع المارة، ونزيف الماكينات، كان شارع المستشفى هو شارع الشراء الشعبي، شارع المحطة هو شارع الاستعجال والسفر، شارع السينما هو شارع الترفيه.. شارع البحر، هو شارع النزهات البريئة، وشارع المدارس.. هو شارع الحب. لم يكن يعنينا أمر هذا الأخير كثيراً، فقد كان الحب في قلوبنا تلك الأيام مجرد يرقات هزيلة لم تكتمل.. كنا نسمع عن عطش الأحبة، ولقاء النظرات، والرسائل الملتهبة، والموعد واللقاء، وأشياء أخرى لا تستقر في أذهاننا كثيراً، وكنا حين نمر في ذلك الطريق، ونرى انفراد الأحبة وتخلخلهم، ودوران نظراتهم.. نبتسم بلا معنى.. نتساءل.. هل يلعبون عروسة وعريس.. وهم في مثل

هذه السن؟ . . وأذكر أننا عثرنا في أحد الأيام وفي ذلك الطريق بالذات على حزمة من الرسائل مكتوبة بشقاء أزرق، وملفوفة بشريط أحمر من أشرطة لف الهدايا . . كانت مخبأة تحت حجر أملس يبدو أنه كان بمثابة صندوق للبريد استخدم كثيراً من قبل. كانت معنونة هكذا . .

من الباكي إلى الضاحكة أحلام.

فضضناها بخوف، وفوجئنا بعشرين رسالة تبكي بمرارة، أمام ضحك مستهزئ لواحدة اسمها أحلام. بالطبع لم نفهم لغة تحكي عن نرجسية الذات، والوقوف على الأطلال، وجوع المشاعر، والشريان الأورطي، وفي قلبي حمم تنفجر، والحب من المهد إلى اللحد، ووداعاً يا أوكسجين العمر. . لكن بكاء الكتابة أبكانا، وأحسسنا بأزمة حقيقية، أقسمنا أن نغربل المدينة بحثاً عن الضاحكة أحلام لندس ذلك البكاء في ضحكها ونبكيه، وكان بالطبع قسماً أبلهاً، وبلا معنى، وكانت تلك الرسائل بداية لأن ننظر إلى شارع الحب نظرة أكثر نضجاً وموضوعية. وأيضاً لأن نقترب من عالم (سعد روميو) الذي كان متمركزاً في ذلك الدرب.

كانت الأناقة الشبابية قد ارتبطت في ذلك الوقت بظهور موضة (الشارلستون). . ذلك السروال المخاط بترف. . وبثنية تحتية واسعة. . وجيبين ينزحان حتى الركبة. كانت تدعمه أقمشة كالترقال، والتريفيرا. . و الاسموكنج وسرعان ما قضى ذلك الشارلستون على كل موضات الأزياء القديمة، وأصبحت بناطيل الأباء ضيقة الثنية والتي شاركت في التنمية والاستقلال، ومهام الوظائف. . وعمدت مرتديها (أفندية) محترمين، تلقب (بجراب

البندقية).. وتثير سخرية المتأنقين.. لقد ناضلنا نضالاً صعباً ضد صرامة آبائنا في تمسكهم بجراب بندقيتهم.. استعنا بدمع العين، ورقة الأمهات، ووساطة أعمام شبابيين حتى دخلنا في تلك اللوحة الجديدة.. كانوا يرون الشارلستون صعلكة، وأقمشته التي تدعمه.. أقمشة منحلة تفسد أخلاق الخياطة، ولا زلت أذكر أول شارلستون دخلت فيه.. كان تريفيرا أحمر اللون، رفضت كلاسيكية خياطنا الأسري (فهمي قرياقوس) أن تفصله، ففصلته عند ماكينة شابة ظهرت بظهور تلك الموضة. أيضاً كان وضع المنديل حول العنق لمسة مهمة تكمل تلك اللوحة الجديدة. فتبدو الأعناق صفراء، وخضراء، وقرمزية.

كان سعد روميو هو تلك الأناقة الجديدة بكل تعقلها وفوضاها واستفزازها لجراب البندقية، واحتشامه.. كان شاباً في الثلاثين.. متناسقاً وطويلاً، ويشبه الجامعيين.. يأتي من كتف المدينة الشرقي على دراجة لامعة.. مهووس آخر حول قلبه إلى فندق بتعبير الطريق.. وظل يتنقل في شارع الحب عشرين عاماً.. يحب، ويهجر، ويهجر، ويحب، ماتت موضة الشارلستون، فركب غيرها.. ارتفعت الأحذية سنتمترات عن الأرض، فارتفع بحذائه، كبرت حبيباته وتزوجن.. وأنجبن، وترهلت ملاحتهن، فصغر بصبغة الشعر أعواماً، وأحب أخريات.. كان الطريق يناديه بروميو، فيحتفي بنداء الطريق، وعندما بدأ المجتمع ينزح نحو واقعية صرفة، مواريا عصر الرومانسية الثرى وبدأت نظرات البنات أغنياتهن.. تحتال على راكبي السيارات.. وتغازل أموال الاغتراب التي بدأت تتسكع في شارع الحب، اختفى روميو

المدينة، اختفى خمسينيًاً قاحلاً. . ولم يره أحد بعد ذلك.

هل كان سعد سعيد الملقب بسعد روميو مجنونا؟

في الواقع تبدو كل الأدلة ضده، لكن جنونا بتلك الرشاقة، وتلك القصائد المترنحة، وذلك الهمس المتقن، وتلك الشباك التي امتلأت طوال عشرين عاماً. . جنونا بكل ذلك التنوع كان يستحق التحية. . لا كهرباء المصحات النفسية.

الطريق إلى القراءة بدأ من بهدلة (عزيزو)، ، وكتبه المشردة بين الوعي والغياب، كنا نلتهمها واقفين بقراءة الصف الثالث الابتدائي المرتبكة، جزيرة الكنز، ديفيد كوبر فيلد، وعشرات الأحاجي، والغوامض المترجمة لتهوي بتلك اللذة على أذهاننا الطفلة. وعندما مات عزيزو، وأحرقت بضاعته، لم ينته الطريق بلافتة الإغلاق، لكنه انحنى قليلاً ليمر إلى مكتبة (عكاشة). كانت بناء أزرق من الخشب، يتيمة في وسط أكشاك عصائر الليمون والعرديب والكركدي الملاصقة لحديقة (عبود). كأن صاحبها أرادها أن تزعج شهوة العطش وكان على حق. فقد شقت بضاعته في البداية طريق البيع بثقة جنبا إلى جنب مع الليمون، والعرديب والكركدي. يشرب عطش الحلق، وعطش الذهن في آن معاً. . وكانت التكلفة واحدة. من تلك المكتبة تعرفنا على مصر الثقافية، وبيروت الثقافية، وعواصم أخرى لم تكن في نفس الثقافة، لكنها مجتهدة. لم نكن نفهم كثيراً لكن اللذة تسري وتطغى على عدم الفهم، ونجدنا قد أدمنا عكاشة، ومكتبته حتى أصيبت المكتبة فيما بعد بعدوى الربح المجاور وتحولت بنفس (عكاشاها) إلى كشك لبيع الليمون والعرديب والكركدي. عكاشة نفسه كان غريباً في

قناعته. . ركب موضة اليسار التي كانت في ذلك الوقت حافلة يركبها الشباب بتذاكر الهوس بالحرية، كان يكره الحر، والغراب، و(جرجي زيدان). يقضي ساعات ينقب في رفوفه التي كانت تدفن الكتب في غير رحمة، يبحث عن كتاب لجرجي، حتى إذا عثر عليه. . أهداه لواحدة من (الحواءات) ليستخدم في أغراض بعيدة عن القراءة. وكنا عندما نأتي برفقة آبائنا في بعض الأحيان. . نراه قد انتفش فجأة، طالت قامته، وأصبح صوته كأنه يبث من مظاهرة، كان يواجه آبائنا مواجهة تربك أبوتهم. . وتحولهم إلى حلاقيم متعكرة المزاج ترغي وتزبد، وحين ينطق بكلمة (البيروقراطية) التي كانت السوط الذي تجلد به الوظائف العامة، نجدهم يرددون. . هداك الله. . ثم ينصرفون دون أن يهدوا أذهاننا تلك اللذة التي كنا نترقبها من كتاب. وعندما ماتت المكتبة، ونبت في قبرها كشك الليمون. . ضحك آباء الحي. . قالوا لقد اهتدى عكاشة أخيرا. أيضاً الطريق لم ينته بلافتة إغلاق جديدة، انحنى أكثر ليمر بمكتبات أخرى، وقراءات أخرى.

كانت فرقة (الشرار) الشبابية آنذاك، هي فرقة العمر الطفل، والعمر المراهق فيما بعد. . أنشأها موهوبون خانوا وظائف الخدمة المدنية، وانشغلوا بموسيقى (البوب) و(الروك آند رول)، لم يكونوا في قامة (بريسلي) و(ديانا روس) و(بول مكارثي)، لكن مجتمعاً محلياً مستغربا مدهوشا، أغدق عليهم سنتيمترات دهشته، فطالوا. . كانوا حواة في الأعراس والأندية والنشاط الخيري، ديكتاتوريون في الساحات. . يسرقون قوى الشباب لتخور في الرقص، ونظرات المراهقات لتتبعهم حتى مخادعهم البيتية. . وكنا في ليالي الخميس

هدفا لنداءات تلك الفرقة، تحولنا إلى آثمين صغار يغافلون صرامة آبائهم، ودموع أمهاتهم، ويجرون وراء إبهار الحواة حتى الفجر. كان أحد أعضاء تلك الفرقة ولعله عازف (الطرمبة) أو (الباز جيتار)، يقيم في حينا، ولد مستهتر بتوصيف آباء الحي، يدخن السجائر، ويسف (السعوط)، ويقضي ساعات الظهيرة متنزها بين مدارس البنات، وشاب فذ بتوصيفنا نحن. كن نحاول التقرب إليه، نتابع قصة الشعر في رأسه، وتناسق الرموش في عينيه، وننبهر أكثر. الآن أتذكر ذلك الانبهار الخطر، أتذكر عصيان الخميس، وعلقة الجمعة الصباحية التي تتبعه. وأستغرب. ويبدو أن فرقة الشرار الموسيقية كتب لها أن تنطفئ، فقد هاجر معظم حواتها إلى الخارج، بعد أن كبروا، ويئسوا، وتحولوا إلى آباء. حتى جارنا العازف ما عاد ولداً مستهترا بتوصيف آباء الحي، اختفى خلف شعر أشيب، ولحية جهمة، وقفص زوجي، ووظيفة من وظائف الروتين. ولا أنسى أن ظهور تلك الفرقة وانمحائها، قد ارتبط بظهور وانمحاء إحدى شخصيات الساحل الغريبة. . إنه (المحبوب) الذي كان ولداً فارعا بزي أفريقي شديد الزركشة والفوضى. . كان يستلم ساحة الرقص من بداية الليل حتى نهايته. . يهتز بالرأس، والعنق، والصدر، والرجلين، يذوب حتى يسقط. كانوا يطاردون تطفله يخرجونه من الساحة مهانا، فيعود أكثر تحمسا، وكانت بعض الأعراس صارمة، يحرسها آباء، وأعمام يحملون الشر، والعصي، كانوا يؤيدون البهجة، ويرفضون الفوضى، وعندما يتطفل الرجال على فتاة راقصة، تجد عصيهم سباقة في عمل الشر. كان (المحبوب) يعرف ذلك. . ويعرف كيف يقهره. ولعل مهنته كبائع

للسعوط والسجائر في نهارات الرزق، تجعله يملأ أمزجة هؤلاء الصارمين. فيبدو في كثير من الأحيان استثنائيا راقصا، تراقبه الصرامة وهي تضحك.

هل كانت علقة الجمعة الصباحية، وتوصيف آبائنا لذلك العازف بالولد والمستهتر تنكيلا بالموسيقى؟

في ذلك الزمان.. زمان الحمق والتذمر، أقول نعم.. وفي هذا الزمان.. زمان النضج، أقول لا.. إنه فرق في صياغة الأجيال، فرق بين أذني، وأذن أبي، وآذان أبنائي أيضاً، خروجنا على السلطة الأبوية، ومطاردة الليل، ونحن تلاميذ في كفالة سلطتهم.. وتنشئتهم كان يفاقم المسألة. وقد عرفت أبي متذوقا لموسيقى جيله، ومترنما بأغنيات ربما انحفرت في كيانه طفلاً.

لا أذكر بالتحديد متى دخل (جنّي) إلى حياتي العاقلة وأجنها..

هل حدث ذلك في سوق الذهب، حين ذهبت برفقة والدتي لشراء خاتم، وأسورة، وشدني أحدهم من قميصي، وتعاركنا، ثم اصطلحنا، ليصبح فيما بعد الصديق جني؟

هل حدث ذلك في مسيرة البكاء على عبد الناصر، حين خرجت دموع المدارس، تبكي على زعيم سطا على دمع العروبة من المحيط للخليج، وسقط تلميذ دائخاً عند قدمي، وأسندته، فكان الملعون جني؟

أم كان ذلك في عيد العلم حين قرأ تلميذ (ياسين) مفتتحا مهرجان العيد، فألهبنا صوته، وقلنا له.. أحسنت... أحسنت، وكان جني؟

لقد دخل النحيل حياتي.. بواحدة من تلك الطرق.. لقد كان (الحضارمة) يشكلون جزءا هاما من وجاهة الساحل، هؤلاء أيضاً مهاجرون، قدموا من المكلا وحضرموت، اقتسموا كعكة السوق الدسمة مع البنيان، وبمرور الوقت تأصلوا بشراسة، وأصبحت أسماء، كحضرموت، وصنعاء، والحديدة، مجرد أسماء، يسمعونها عرضا في المجالس، ونشرات الأخبار، وربما يطالعها عيالهم بلا مبالاة في أطالس الجغرافيا. كان جني حضرمياً.. انشغل في محاولة انتشالي من مسكنة أولاد الحكومة في رأيه إلى (دردحة) أولاد السوق.. كان يملك طبعا غريباً، ومزاجا أخرس، وصوتا مرهقا.. يحب الأكل في السوق، وفض المعارك، ويملك في جيبه مصروفا أكبر من طاقة الطفولة. وكانت دراجته (السيلفر وايت).. قد جمعت مليون نظرة حاسدة عندما زارني بها لأول مرة. تلك الفترة تعلمت قيادة الدراجة، والأكل في السوق، وفض العراكات.. وبدأ مزاجي يميل إلى الخرس. وفي واحدة من (الشيطنات) النادرة، شهدت عرضاً للزار.. وعدت إلى منزلي مصعوقا.

قال (جني) كأنه يدس في تذوقي تحفة نادرة..

- اليوم سآخذك إلى عرض للزار في حي المدينة.

دخلنا إلى الحي.. شقياً يقود ساذجا، وساذجا يتوكأ على شقاوة شقي، كنت أسمع بالزار نادراً. لم يكن يرد ذكره في دردشة أسرتنا الصارمة أبداً، وإن ورد فإنما ليوصف بالرجس والفجور، ويلقى بعيداً عن الدردشة. وكانت الفرقة التي تؤدي تلك المهام الشاذة، راسخة في المدينة بشدة، أسسها مخرب للعادات تشيخ،

وجر من خلفه قاطرة من بله النساء، يقوم فيقمن، ويقعد فيقعدن. . كان العقلاء يحاورونه، فيقول. . هو ضرب من العلاج النفسي، يستشهد بتقارير كتبها أطباء نفسيون، لم تكن تفارق تجواله في الأحياء أبداً. . وأذكر أن عدداً من قريباتنا الشماليات خضعن لتلك الفوضى العلاجية، بلا سبب، وأحسب أنهن قضين أياما مدللة تحت حراسة شيخ الزار القوي. وحين أراد واحد من معارفنا الطاعنين في السن أن (يتفوضج)، بكى في حضرة أولاده وأحفاده. . قال دقوا لي الزار، فدقوه، وكانت أياما عصية على الهضم أمضاها العجوز (محننا) ومبخرا، وراقصا، ومدخنا لسجائر (الروثمان كينج سايز).

كان بيت الزار في وسط الحي، عاريا بضجته، وإضاءته النيون، ومئات العيون الرجالية التي تكمن قريباً من بابه. تلاحق الداخلات والخارجات. كان الدخول محرما على الرجال، ليس عن حياء ولا فضيلة، ولكن لأن تواجدهم يفسد التلقي الأمثل لجرعات العلاج كما يقول (الزاريون). . لم نكن رجالا، فدخلنا. . تعلقنا بثوب حريمي قادنا حتى أحشاء المصيبة. كانت الحالة امرأة في خريف العمر. . احتمت بشيخ الزار القوي، وفرقته، ومارست نزوتها على أكمل وجه بعيداً عن أي حبل اجتماعي. . كانوا يقولون. . زارها حبشي. . يرشونها بالعطر، والألقاب. . والسجائر، يقولون. . يا لولا. . وترقص، يضفرون سعالا، وأغنيات، وحماقات، ويقفز الطقس بالمريضة حد الغياب عن الوعي. . يرشونها بالماء، والكحل، والكولونيا. . تستيقظ لتغيب، وتغيب لتستيقظ. كنت خائفا أرتعد، وكان (جني) مستمتعاً. . يردد يا لولا. .

- 12 -

أعود الآن إلى أهل الجوار، أهل البيوت الناقصة والمحاصرة، لن أباغتهم مباغتة الطفل الذي رأى، وسمع، وتذكر، لكنني أحرر ذكرياتي معهم من حبل معقود بشدة. .

كان الجوار في معظم أوقاته جوارا راقيا، متماسكا يساهم في تماسكه ذلك التنقل اليومي للأوعية، والبهارات، والملح، والثرثرة، من بيت إلى بيت، تساهم تلك النهرات الصارمة لآباء أي بيت في وجه أي طفل جار. . يساهم شهر رمضان، حين يرص عشرات الإفطارات لعشرات الأسر في الطريق. . فيأكل بعض من خير بعض، ويأكل أبناء السبيل أيضاً، تساهم صلاة الجمعة حين نمشيها حيّاً بأكمله، ونعود منها حيّاً بأكمله. وكانت المناسبات بشقيها المفرح والحزين لا تبقى منفردة في بيت. . كانت تتوزع على عاتق البيوت جميعاً، فتبكي معاً وتضحك معاً. . نحن الصغار كنا (مراسيل) الحي ترسلنا البيوت كلها. . وأولئك الكبار كانوا كبار الحي توقرهم البيوت كلها. . وأذكر أن والدي سافر في إحدى السنوات لدراسة بعيدة. . فما غابت صرامته، لأنها كانت موجودة في أي بيت آخر.

عائلة (جرجس) اللصيقة. . عائلة الزوج والزوجة، والصبيين، كانت السينما تعض إطلالتهم كما كانت تعض إطلالتنا، وكانت الشاشة أكثر تبرجا ووضوحا من بيتهم، إغراء هند رستم أكثر وقاحة، غناء (كابور) يثقب طبلة الأذن، تدحرج (زباتا) عن فرسه يثير غبارا، وضجة، ورصاص (استسفن) يقتل ساعات الهدوء عندهم، فقط لم يكن لديهم ضيوف أشقياء ينجرون سلماً ويتسلقون. كنا نستغرب من أسود أزيائهم في مناسبات الموت، من حضور نسائهم الزائرات بزينة جامحة لا تستر بالثياب الوطنية، ومن تسرب أجسادهم في مساءات الآحاد إلى حيث لا نعلم. وحين يغازلهم فرح، كزواج قريب أو خطوبة، كانوا يشردون العصير في البيوت كلها، يغنون أغنيات غريبة على الفرح الوطني، (كالعتبة قزاز)، و (هنيالك يا عريس)، و (يا معمر بيت العدل)، مما كان يدهشنا بحق. . وعندما كبرنا قليلاً. . وتعرفنا على تلك المباني المترفة، التي تجمعهم في الآحاد، وذلك النادي الأبيض، الذي يلم أفراحهم بخصوصية، أدركنا كم هو عظيم صدر الوطن، يطرد النعرة، ويؤاخي بين الطوائف. . وكان أحد أبناء تلك العائلة فنانا، كان يصنع مجسمات لعربات وطائرات، ويخوت، ومراكب شراعية، يشارك بمجسماته في مسابقات محلية، ويأكل جوائزها بلا عناء. . كنت أسأله مندهشا. . كيف تصنع تلك الأشياء يا رجائي؟

كان يربت على ظهر سؤالي بسن تجاوز العشرين في ذلك الوقت. . الموهبة يا صغير. أسأله عن الموهبة فيتخطى سؤالي إلى مجسم جديد يصنعه.

عائلة ياسين اللصيقة من ناحية هستيريا الحوادث. . كانت كأنها

عائلتي.. نفس التوسط الطبقي، نفس الصرامة، نفس الاقتحام الغريب.. والمزمن لأقرباء، وغرباء. كانوا أساسا من العاصمة، دحرجت والدهم وظيفته ليستقر في الساحل، فاستقر بعمق، كنا نخافه بشدة، نهمس بلعبنا بعيداً عن هيكله الذي لا ينام إلا في الحديقة الهزيلة، وعندما تصرخ أبوته.. يا حسن.. نفر تاركين حسن الابن يواجه تلك الصرخة المؤنبة. لقد زاملني حسن ابن تلك العائلة الصغير منذ الرضاعة حتى الصبا علمني شقاوة، وعلمته شقاوة، وكان متواجدا في كل مشاق الطفولة وومضاتها. تثقفنا من عزيزو معاً، تسربنا إلى بث حمزة المسائي معاً، وقلنا (هابي بيرث داي تو يو) معاً في عيد الميلاد السعيد في حي العظمة. وأذكر ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه معاً لمشاهدة عرض الكلاب البوليسية.

كانت الشرطة في سعيها للحد من وهج الجريمة في الساحل، قد استوردت عدداً من كلاب (الوولف) المدربة على شم القبيح في سلوك البشر، وإخراج مرتكبي الجرائم حتى لو اختبأوا في أرحام أمهاتهم. وتنبيهاً لفعالية تلك التكنولوجيا المتقدمة، أعلنوا عن عرض شيق لجهود الكلاب، وهي تعاين مجرمين، انتقتهم سوابقهم ووضعتهم في ذلك الاختبار الخطر. كان المسرح ساحة مركز الشرطة الكبيرة تذكرة الدخول.. مجانا.. يبدأ العرض في صباح الجمعة. تلك كانت جمعة مغايرة، هزمنا سلطان النوم باكرا، برغم جميع أسلحته النعاسية، فقد تسلق (حسن ياسين) حائط بيتنا، داهمني في لذة النوم، وصب علي ماء باردا.

كنا مبكرين على العرض، واكتشفنا أننا تأخرنا كثيراً على انتقاء موقع الفرجة، فقد كانت المدينة كلها هناك.. كأن بوقا ساحرا من

ألف ليلة وليلة، جمعها بذلك الترف، وتلك النظرات الجائعة. كان عطر العرق رخيصا ومندلقا، باعة الليمون، والكردي، يعبون ويفرغون، وصائدي الماء العكر، يحومون حول الصيد الذي كان ناسا وجيوب ناس. تسربنا بضآلة الحجم، وصغر العمر، حتى كنا من متفرجي الدرجة الأولى.. نواجه العرض صافيا متبرجا.

ابتدأ العرض.. كان حسن ياسين يعض على يدي بأظافره.. بحثت الكلاب في الصف المجرم الممدد أمامها، ونجحت.. بحثت مرة أخرى بعد تغيير المواقع والثياب المجرمة، ونجحت، وفي المرة الثالثة حدث ما لم يتوقعه مستوردو التكنولوجيا، ومنظمو العرض على الإطلاق، فقد طاش أحد الكلاب من مهمة تجنيده، هاجمنا نحن متفرجي الدرجة الأولى بنفس مفتوحة، قضم سواعد وأقداما وملابس، وكنا من المحظوظين.. فقد وصلنا إلى بيوتنا أشبه بالعرايا فقط، بينما وصل البعض إلى بيوتهم، مضمدين، ومحقونين وموعودين بمصل السعر ذي العشرين حقنة وعذاب.

الآن أترحم على عائلة (عسكر)، عائلة الجامعي المثقف والتي ذهبت غضة بكيانها الخماسي في واحد من أندر حوادث الطرق.. حادث يحصد عائلة. لقد أكلنا النبق من سدرة في بيتهم، أكلنا ثمار (الحنبك) من نيم في بيتهم، وأتلفنا شتلتين لليمون والجوافة. كان جوارهم راقيا، أصفياء، وأنقياء، بلا حس ولا ضوضاء، ولا منغصات ترهق الجيرة.

بيت الأشجار أيضاً أذكره، كان أشبه بدغل، تظلله أشجار النيم، يتسلق سقفه نبات(اللبلاب)، وتتحسس زهور البنفسج دنياها بين الظل والسيقان. كنا نحب ذلك البيت، نحبه لأن رياح التغيير

كانت تهب على ساكنيه بلا توقف، مما يضفي إلى الحي وجوها جديدة.. وحكايا جديدة، فقد سكنه قضاة، وموظفون، وعمال، ومهندسو ري، وأطباء، إلى أن حولته السلطة المحلية إلى استراحة لزوار الإقامة القصيرة من موظفي العاصمة.. عينت (سليمان) طباخا مستديما، يطبخ للمستريحين إن وجدوا، ويقضي أماسي ونهارات متبطلة، يحلق فيها ببيوت الجوار يثرثر عن أطباقه، وموائده، ومكافآت الخدمة الفندقية التي حصدها، إن لم يوجد أحد. من تلك الأماسي والنهارات المتبطلة، دخل سليمان أغشية الحي، دخلها دخول بكتيريا، وفيروس، ودخول فاتحين مهمين أيضاً.

كان طباخاً كلاسيكيا إلى أقصى حد. تلازمه تلك الصفات التي لازمت طباخين كثيرين قبله، وكثيرين يأتون بعده. لا شارب، ولا لحية، ولا نخوة، ولا عمامة مفزعة تدخله إلى عالم الآباء والأعمام. وكانت خواتم الذهب التي تتبسم في يديه قد محت هيبة الخمسينات من عمره، جعلتنا نناديه بسليمان دون أن(نعممه) أو (نخوله)، جعلت آباءنا يسمونه (الصبي)، أمهاتنا يسمينه (ولد الحكومة)، والشارع الضاج يلقبه بسلومة، كان يحتفي بالأسماء كلها.. يصافحها هادئاً ومبتسما، وكان ثرثارا، ذا منهج خاص في الثرثرة، ذلك المنهج الحكائي المرتب، كأنه سرد من وراء غلاف. من ذلك المنهج تعرفنا على أمه التي كانت داية في المستشفى (أيام كان مستشفى)، وأخواته المتزوجات من رجال أعمال لم يسمع بأعمالهم أحد.. وأولئك الذين عمل في خدمتهم، وأخذوه (راوند تريب)، زار فيها العالم من إسبانيا (فرانكو) إلى باريس (شارل

ديجول). ومن كينيا (موي) إلى كاب أفريقيا الأبيض. كان يرجمنا بالغوامض، ونرجمه بالبله، يصف نساء الأرستقراط كأنه يصف (جينا لولو بريجيدا)، ويصف أطفالهم كأنه يصف أطفال (شارلس وديانا). وفي أحد المطبات النادرة لثرثرته المذوقة، التقى بقبطان بحري كانت عواصم العالم بالنسبة إليه، مجرد غرف وصالات وحيطان في بيت مهنته.. راوغه القبطان..

- هل شربت عصير القنفذ في بوند استريت؟ورأيت حلاوته؟

اهتاج المثرثر..

- طبعا.. كيف أذهب إلى هناك ولا أشربه؟ إنه أحلى عصير أشربه في حياتي.

بالطبع لم يفكر أحد في صنع عصير من شوك قنفذ مروع، كان شركا مازحا.. لم يخب.

وبالرغم من ذلك كانت لسليمان نكهته، وكانت له أهمية تتجلى كلما طفح عرس في الحي. كان يبرك على أطباق (الكوكتيل) العشائية، يصنعها بفن، تساعده خبرة مسنة، ونسوة منبهرات، وعندما يتجشأ المدعوون.. يتمتمون.. الحمد لله.. اللهم أدمها نعمة... يعرف أن مهمته انتهت، يذهب إلى بيت الضيافة وحيداً.. دون شكر أو قرش من أحد.

سليمان أيضاً توارى، زارته في أحد الأيام امرأة قال الطريق أنها قدمت من إريتريا.. كانت سمراء في سمار الكحل، تتحلى بذهب يفيض عن حاجة الزينة، وتضع على رأسها غطاء من (شيفون) شفاف، بكت في صدره طويلا.. أبي.. أبي..

وفي اليوم التالي حملت مكافأة خدمته، وأغراضه التي كانت أغراض متسول، وما تبقى منه وذهبت. وبمادة النسيان الفعالة إلى أقصى حد، ذاب سليمان في أذهاننا. .

ذاب الصبي في أذهان آبائنا. .

ذاب ولد الحكومة في أذهان أمهاتنا. . وذاب سلومة في ذهن الشارع الضاج.

بقية البيوت أذكرها كبيوت عادية قدمت إلى الحي ذلك الكم الهائل من عيال اللعب والشيطنة، كوَّنا معهم فريقا متواضعا للعب الكرة، كنا نغزو به أحياء أخرى، ننتصر وننهزم. من ذلك الفريق ظهر نجوم مستقبليون فيما بعد لعبوا في فرق الساحل الكبيرة، وشرفوا طفولتنا القديمة. . أذكر منهم (نعوم)، الذي لقب بالأسد، وكان مدافعا عنيداً، ومكاراً.

أريد أن أعبر الطريق، بمحاذاة السينما، أحيي ذلك البيت القائم بمفرده، القابض على أربعة شوارع بأربعة أذرع من حديد مسلح. . إنه بيت المدير. . لا يهم أي مدير، لكنه لم يخل من مدير أبداً. ناعم، وممتد ومورد الحيطان. في ذلك البيت كانت ثمة أيام خوالي، وثمة بهجة تستحق التحية.

- 13 -

من الذي نبش حادثة (أوبو) الشهيرة؟

من الذي بعثر في وصفها مناحة أبكت قساة المدينة جنباً إلى جنب مع القلوب ذات الرقة؟

إنه (ود العازة). . مسافر حي لم يمت في حادث قطارين، اصطدما بحقد في إحدى المحطات العارية حتى من يد منقذة. أوبو.

عندما بني خط الساحل لتغذية الميناء بالمنتجات المصدرة، وتجويعها من المنتجات الواردة، بعثرت على امتداده محطات خلوية، كانت تمثل تقاطعات لإراحة الرحيل، وعواصم لمد قبائل الشرق البادية في المكان بالماء، والشفقة، ووجوه الحضر، دعمت كل محطة بناظر، ومساعدين، وعمال يهيئون السكة، وينظمون الرحيل، خاصة في مواسم المطر، والغبار. كان الخلاء يعمل بصبر، يودع صادر البلاد، ليستقبل وارد الميناء، يجوع، ويعطش، ويبتل، ويتغبر، ويعمل. . كانت الحركة لا تنقطع، قسوة الطبيعة، وحنوها لا ينقطعان. . يمر القطن، والصمغ والفول والذرة

والسمسم.. مسافرين إلى بلاد تسلخهم وتعيدهم ملابس وزيوت، وحلوى، يجيء البنزين والغاز.. يأتي الطماطم علبا، والتمر علبا، والكبريت أعوادا نحيلة.. والسكر قصبا من عندنا.. وسُكَّراً من عندهم.. كأنما العالم عندنا.. ولا نملكه. كان ناظر المحطة نائما، أو هائما، أو حتى في لحظة وئام عائلي.. ثم..

ذهب مئات الناس إلى المقابر دون حجز أو تذاكر.. لقد كانت مرفقا أمينا.. وطيب القلب.

ذهب المئات إلى مصحات خلوية.. لم تشم حادثا من قبل، فأدخلتها الرائحة في غيبوبة.

وجاء ود العازة إلى الساحل.. لم يكن ذلك الذي حزم أمتعته، وقطع تذكرته، وحجز وسافر.. لكنه كان ود عازة آخر.. جرته إلى الحياة داية معقدة اسمها حادثة (أوبو).

أمير تاج السر

مرايا ساحلية

سيرة مبكرة

ـ هناك كتّاب كثيرون يستحقون أن نعرفهم. . اخترعوا تقنيات حديثة في الرواية. . ويمكن اعتبارهم كتّاباً عالميين. . أبرز هؤلاء السوداني أمير تاج السر.

جمال الغيطاني. . من محاضرة بعنوان:
الأديب العربي نافذتنا على العالم

ـ هذا الروائي السوداني يشبه الساحر الذي يبهرك من الوهلة الأولى، فلا تستطيع أبداً أن تفرق بين ما هو حقيقي، وما هو خيال.

مجلة الأهرام العربي

ـ تبدأ الكتابة غواياتها لدى أمير تاج السر من لحظة تصادم بين واقعين وهميين: واقع شعري متخيل، وآخر حكائي. . تتراكم تفاصيله حتى ليكاد بعضها أن يمحو البعض الآخر. . دوي هذا التصادم هو ما يجذب تاج السر إلى الكتابة ويجعله صريع فتنة لا تقاوم. . أي رواية من رواياته هي صندوق سحري مأهول بالأسرار، أسرار شقائه وهو يقتنص الماضي بشبكة الكلمات، وأسرار لغة الواقع الخفية التي تخترق كل واقعة في اتجاه مغزاها. .

ـ ساحر يعبئ قبعته بالوقائع. . أمير تاج السر هذا. . وسحره لا يخطئ أبداً هدفه.

فاروق يوسف ـ ناقد عراقي

ـ أمير تاج السر. . أعظم الروائيين السودانيين على الإطلاق.

هاشم كرار ـ كاتب سوداني


المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان
ص . ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب